

الركوض خلف الركب

عامر عمر

إلى احبائي الكرام

.. دائما تركضين فوق عشب ندي، تحت سماء كفت لتوها
عن المطر، حولك عصافير صغيرة ملونة، بفستانك الأبيض
المبتل وشعرك المنسدل للخلف، باتجاه شمس توشك أن تسطح..
وكلما ركضت خلفك، منعنتي قدماي المغروستان داخل هذا
المثلث من النجيل المترب.

أما محمود الورداني،

وشعبان يوسف،

فلا أقل من أعلن محبتي لكما هكذا على الملأ.

القسم الأول

هذه الطقوس اليومية

لم يكن الجنون قد أصابني بعد وأنا أبحث عن أحد يرميني بالرصاص، أو سيارة مسرعة فأرتمي أمامها، أو قبر مهجور أدفن نفسي فيه بالحياة، فلا أجد سوى إخراج قلبي — ذلك الغض — من مكانه على يدي، وأقطعه بسكين وأنا أبكي تحت الصورة التي في الإطار.

ولم يكن في الأمر ما يشير إلي ما حدث، وأنا أسير على طقوسي اليومية كقطار لا يغادر قضبانه، منذ استيقاظي في الصباح أول ما أستيقظ، على صورة لأمي "أبيض وأسود" في إطار على جدار الحجرة توارثتها منذ زمن، فاعتدت أن أنحني أمامها، وأمد يدي لأقبل ظهر يدها الممدودة على ركبتهما متى تفتحت عيني، مستشعراً في وجهها الملفت بالسواد ذلك الدفء والرضا، ثم مروري اليومي على حانوت بالشارع، يعاملني صاحبه برقة ومودة. ألقى تحية الصباح حارة، فيردها بود

حقيقي، ويناولني بشكل آلي – كأنه ينتظرني – الأهرام وعلبة السجائر ومشط الكبريت وعلبة المناديل، ويجهز لي في عودتي، ككل يوم، نصيبي من الجبن والبقالة ليوم واحد. استرحت لأنه يعرفني جيداً ويعرف ما أفكر فيه ربما قبل أن أطلبه.

أُصر – ليس لضيق الوقت أو اللهوجة – أن أنزل وحادائي غير ملمع، لأمر علي عفيفي الجالس بصندوقه على ناصية الشارع. أعبر له الطريق من الحانوت فيتلقفني ويبتسم. أعلم أنه يستفتح النهار بهذا الحذاء. وجرياً على طقوسي المعتادة، أضع قدمي بالحذاء على الصندوق، أطلع عناوين الجريدة والصفحة الأخيرة، دون أن أفكر يوماً كأني أحد أن أشتري من الحانوت ذلك الورنيش السائل والسريع، لأنه يجذبني بهذا الشوق في نظرتة، وابتسامته الودودة كأنه لم يرني منذ زمن، ورفضه المتكرر أن يتقاضى أجره، وإصراري الدائم الذي يشعرني أن تلك السيجارة تعوقني فأجذب منها نفساً سريعاً وأرميها في منتصفها، لأنه بعد أن يدهن ويلمع ويجس ببطن ساعده – ذلك الذي اسمرّ – جلد الحذاء، يكون بالفعل قد أدى ما يستحق عليه الأجر، فيبوسه عدة مرات قبل أن يضعه في جيبه.

ولعل أكثر أسباب فشلي في الخروج عن هذه الطقوس، كوب القهوة الإجباري الذي أشربه أمام دكان صديقي صابر للدواجن،

الذي يجذب كرسياً لي وينادي على أي ولد من المقهى المقابل لإعداد القهوة في كوب، حتى أن صاحب المقهى اعتاد أن يبدأ في صنعها حال انتهائي من عفيفي وقبل توجهي إلى دكان صابر. صرت أهم أصدقاء صابر منذ اكتشفت إصابته بالدرن الرئوي، وصار يتوقع أن تفاجئه نوبة نزيف من الرئة فيموت على إثرها كأخيه الأصغر رجب، لكنني كنت أطمئنه كل يوم بنفسي.

توطدت الصداقة، وأصبح من طقوسي اليومية أن أنظر إلي الشرفة المقابلة، فأجد يمامة تتشر في هدوء كل صباح بطانية، أو تلم هدوماً منشورة من الأمس، أو تروي وروداً في أصص فخار مثبتة بحديد الشرفة، نضبط أنفسنا متلبسين بالنظر في وقت واحد: هي إلى الكرسي الذي يجذبه صابر لي أمام الدكان، وأنا إلى وجهها الملائكي وشعرها المسترسل على صدرها النافر تحت ثوبها المنزلي، فتدخل مسرعة ومحرجة.

لا أعرف منذ متى بالتحديد بدأت أحافظ على طقوسي اليومية تلك قبل ذهابي إلي المستشفى، يشدني إليها شيء ما لا أستطيع الفكاك منه، حتى بعد أن مرض صابر بالفعل وتدهورت حالته وقال بعتاب: "مش قلت لك؟". كنت أمر على سريره كل يوم مهوَّناً الأمر بينما أقرأ في عينيهِ ما لا تقوله شفتاه، فأربت كتفه وأخذ بالي من أسرته وأطفاله الذين اعتادوا جلوسي الصباحي

لدقائق على الكرسي المقابل للمقهى والشرفة، وكنت أختلس النظر إلى باقي الهدوم المنشورة التي تركتها ودخلت، دون أن أنتبه إلى أنها التي تعبر الطريق إلا من بصيتها اللتين سددهما نحوي بينما تسدل الإيشارب على الشعر الذي كان مكشوفاً في الشرفة منذ قليل وتحكم العقدة على الرقبة والصدر، ولم أعرف من حبات العرق النظيفة على الوجه والرقبة إن كانت "صباح الخير" لأم صابر فقط أم للجميع، حتى سألتها إن كانت قد انتهت من تجهيز طلبها، فعرفت وتسارعت دقات قلبي الذي أحس أن سؤالها الخجول ربما يخصني: "الأستاذ صابر عامل إيه دلوقت؟" قلت: الحمد لله، يومان ويخرج، فأخذت الفرخة وعبرت الطريق ولم تظهر في الشرفة.

لم يكن ما اعتراني من نوبات الضيق والبكاء لأن صابر مات لسبب آخر غير الذي كان يتوقعه، ولا نظرات التسليم في عينيه وهو يوصيني بطفلاته الثلاث، ولم تكن هذه الدموع التي في عيني لظهور الإمامة في الشرفة هذا الصباح بصحبة زوج كان غائباً وطفلة صغيرة، أو لأنني اكتشفت هذا الصباح فقط أن عفيفي، ذلك الجالس علي ناصية الشارع بصندوقه الخشبي، له أب فقد في سبعة وستين، ولم يكن قد أصابني الجنون بعد حين اكتشفت ذلك الاكتشاف المفجع أن صاحب الحانوت والذي أتعامل

معه بانتظام من ثلاثة وعشرين عاماً، كان هو قاتل أبي.
لم يكن الجنون قد أصابني بعد، حين كنت أبكي بالفعل وأنا
أبحث عن أحد يرمني بالرصاص، أو سيارة مسرعة فأرتمي
أمامها، أو قبر مهجور أدفن فيه نفسي بالحياة فلا أجد، فأستخرج
قلبي — ذلك الذي لم يعد غضاً — من مكانه على يدي وأقطع
بسكين وأنا أحرق في صورة أمي التي في الإطار، لأكتشف للمرة
الأولى وأنا أجهش بالبكاء، حين ضمتني يدها الحانية التي امتدت
من الإطار لتخمش رأسي وتربت كتفي، أن الكتابة الصغيرة تحت
الصورة التي في الإطار تقول إنها تحية: أرملة الزعيم.

هيمه

أخرجني اتصال سعاد من استغراقي في تأملهم من أعلى، وهم في ذات البقعة، يتابعون في حيرة كلام زينهم المتدفق وأصابعه التي تشير: تذاكر هنا.. سكر وأسنان وعضم ومعمل كده.. نسا وأطفال وجراحة فوق. يتخلصون رويداً من القلق، وتستحيل الحيرة على ملامحهم المريضة إلى ألفة عندما يسلمون التذاكر للممرضات، ويمضون الوقت — إلي أن تُنادى أسماؤهم — في التطلع من الطرقة إلى الفناء والمبنى ذي الطابقين والسلام، ويعيدون قراءة اللافتة الرئيسية وملصقات التوعية الصحية. كان بالإمكان تمييزهم بسهولة من بين أولئك الذين ينحرفون بعد البوابة رأساً إلى التذاكر ثم يتوجهون بآلية إلى أهدافهم.

لا بد أن سعاد كانت تتصل من الشارع، لأنها قالت إنها الآن ذاهبة إلي عملها، وإنها أخذت هيمة إلى المدرسة، وظلت معه حتى دخل الفصل. كانت تُلمح إلى أن أمر عليه وأصطحبه في

عودتي إلى البيت. نبرتها المتعجلة وضغطها على مخارج الحروف كانت تشي بأن عملي الذي قد يمتد إلى ما بعد المواعيد الرسمية، مهما كان عدد الحالات، لابد أن ينتهي اليوم مبكراً، فالقيام لن تقوم إذا لم أستمع باستفاضة لشكوى كل مريضة، أو تدخلت بالمقاطعة لتغيير مجرى الكلام، أو كفتت عن الاستفسار عن أشياء أرى دائماً أنها هامة، ودخلت من ثم إلى وصف العلاج. تصاعد الصهد من خدي الأيسر، وانتفخ كـرغيف، حتى أن هويدا سألتني بشكل مباشر، فقلت باقتضاب:

— أصل أنا قلقان على الواد.

ولابد أنني كنت قلقاً بالفعل، لأنني كلما قمت إلى سرير الفحص مع حالة، كنت ألبس نظارة الخروج أو أجمع بشكل وهمي مفاتيحي وهاتفي المحمول، أو أضع القلم في جيب السترة الداخلي. تتعجب هويدا، فأعيد كل شيء إلى مكانه متتهدا: إن الولد طيب جداً يا هويدا وهذا أول يوم يخرج فيه وحده، ولم تقل أمه أين أجلسته. قالت هويدا وهي تضع التذاكر أمامي، إنه على كل حال في الفصل الآن وأمّه أوصلته، ولن ينصرف الأطفال قبل الواحدة من المدرسة. تنهدت مرة أخرى وأمسكت التذكرة:

— خير يا ستي .. مالك؟

كان فناء "الوحدة العربية" واسعاً جداً، والنخلتان اللتان حدثني

عنهما فهمي واقفتين، متجاورتين ترتكز عليهما سبورة خشبية،
وبالقرب منهما سارية للعلم، وأشجار الجازورين داخل السور،
والعيال يتناقصون كلما نادى المعلم أسماءهم من الكشف الذي في
يده، والفناء يصير أكثر اتساعاً بينما أتأمل النخلتين وأشجار
الجازورين وصخب العصافير على العلم والجرس وزجاج
الفصول المدهون بالأزرق تقطعه علامة إكس. هوى الكف على
صدغي، فدار الفناء بالأشجار وارتطم النخيل بالشبابيك وانبتقت
النار من وجهي. كان الكف مباحثاً والفناء خالياً إلا مني ومنه
والكشف الذي بيده:

— يا حمار مش اسمك محمد زفت؟

تصاعدت أسراب النمل إلى صدغي وأنا أطل على الفناء، تلك
البقعة التي خلف البوابة، والتي تشهد حيرتهم بين الدخول يميناً أو
يساراً أو إلى الأمام، والتي تشهد أكثر ما تشهد إشارات زينهم لهم
في كل الاتجاهات ولهجته التي صارت كنداءات الباعة غامضة
وسريعة. يدهشني ذلك الحاجز الذي لا ينمحي تماماً إلا بخروجهم
من هذه البوابة، إذ يتحدثون بوضوح وانطلاق على طول الطريق
الزراعي، وكلما تخطيتهم أجدهم في المراة يشيرون بحيوية وهم
يخبئون رعوسهم تحت مظلاتهم المفرودة من الشمس، وحين
أسمع لغطهم الحيوي أتأكد مرة أخرى كم نحن مقبضون رغم

معاطفنا البيضاء، تماماً كما أن هذا المكان جهنم ومقبض. قالت هويدا:

— التهاب اللي ف وش حضرتك ده واللا حساسية؟
لم يكن ثمة سوى دكة أخيرة، أوصلتني إليها الدفعة التي أعقبت الصفعة، والتي كانت قوية بما يكفي لأن أتعثر وأكاد أنكفي في اندفاعي من باب الفصل الذي عرفت فيما بعد أنه فصلي، ماراً بين الدكك المشغولة متخبطاً في عيون كثيرة تحقق في دهشة: خدوه جنبكم رابع. اتسعت الدكة علي مضض بما يسمح لوضع فخذي الأيسر. التصقت بالولد، لكنني كنت منتبهاً إلي زفرائه ولكماته من تحت الدكة في جنبي وهمسه المتكرر بضيق "اتأخر كده".

مر الدكتور عبد العال من أمام الحجرة، وألقى التحية على عجل، ودخل بجسمه من الباب:

— شفت يا سيدي العيال البايظين.. شدوا لنا أعصابنا والآخر..

قاطعته مبتسماً:

— يتغلبوا واحد/ صفر!

لم أفرج على المباراة، لكنني كنت أعرف هذه النتيجة مسبقاً، ليس تكهنًا، لكنني منذ اللحظات الأولى كنت متيقناً أننا سنهزم،

ليس تكهنًا ولا حدسًا، إنما يقين خالص، فلقد كنت أعرف من نزول اللاعبين إلى الملعب، وأول ثلاث دقائق كيف ستنتهي المباراة، فأغلقت التليفزيون.

لم يعد لدي شك في أن سعاد كانت تلمح إلى انتهاء دورها عند هذا الحد، لأتحمل مسئوليتي في إعادة إبراهيم إلى البيت، فقد كانت مكالمتها متعجلة ومختصرة. لم تكن مستعدة — فيما يبدو — للخوض فيما إذا كانت قد دخلت بالولد إلى الفصل واطمأنت على جلوسه، فحملت أشياءي مرة أخرى وسرت باتجاه الباب منتويًا الاعتذار لمريضاتي، لأنني قلق جدًا على الولد، والذي لا أعرف في أية دكة جلس، لكن هويدا أكدت لي أنه جلس في المنتصف في الدكة الثالثة، وقالت إنه في أولى تاني، ألم تقل لك المدام ذلك؟ فتحسست خدي الملتهب، وتراجعت عن الخروج ونظرت في التذكرة التالية وقلت لها:

— أصل انتي ما تعرفيش غلاوة إبراهيم عندي.

جاء بعد خمسة عشر عاما من موت يارا. سبقته فترة من العقم غير معروف السبب، ثم جاء هكذا وحده، دون علاج، وبعد أن توقفت عن إعطاء سعاد العلاج، ومنذ ذلك التاريخ وأنا أغير سياستي في علاج العقم. مسكت التذكرة وقلت: خير يا ست الكل؟ — متجوزة من خمستاشر سنة وما عنديش أطفال.

سقطت عن حافة المقعد مرة واحدة بينما كان المعلم يدير ظهره ليكتب الحروف، فالتفت عيال الفصل كله. أغمضت عيني. لم تستطع قدماي تحمل ذلك الوضع فسقطت، وتناثرت أدواتي. لفترة ظلت راقداً على الأرض متوقفاً نزول العصا على جسدي من المعلم الذي جاء، لكنني حين فتحت عيني وجدتها تهوي على جنب الولد الذي بجواري:

— يقعد ازاي كده؟ اتأخر له!

ترحزح الولد لكن كوعه لم يكف عن الزغد، وبدأ أن الأستاذ لمح، فأعاد في نهاية الحصة ضرب الثلاثة وبص لي:

— لو زنفوك قل لي!

لا أعرف كيف مر اليوم والثلاثة يهددونني بعد الانصراف ويجبرونني على الوقوف في الفترات التي بين الحصص، وكنت كلما أنظر إليهم تعتريني الهيبة والخوف، متمنيا ألا يدق الجرس، لكنه دق دقته الطويلة وهاج العيال وعكس ما كنت أرتب للخروج متأخراً، كان الثلاثة يدفعونني للخروج قبلهم، وكنت قد رأيت في عيونهم ذلك التصميم الغريب علي إيدائي، فتسارعت دقات قلبي وجف ريعي. خارج الفصل، وفي الفناء بدأ الضرب، متفرقاً، وأنا أتقي ضرباتهم بالإسراع لكنهم كانوا يتتبعوني أينما ذهبت. كان الأمر مثيراً للرعب وصدغي ما زال يهب صهداً من صفة

الصباح الحادة، والدفعة العنيفة في ظهري، ولم يكن أمامي سوى ما فعلت، لا إرادياً انطلقت ساقاي إلى الأمام وبأقصى سرعة، يحدوني أمل في الإفلات من ذلك العدوان، غير أن وقع أقدامهم تسارع خلفي. جذبوا الشنطة فتعثرْتُ، وجاءتْ لكماتهم من أكثر من اتجاه. من الذي لمَّ كتبي المبعثرة؟ ومن الذي أخذني إلي الدار، ومن الذي جعلني أمرض في اليوم التالي وأتباطأ في النوم كي لا أذهب إلى المدرسة، فتصرَّ أمي على الذهاب، فأذهب وحدي متأخراً وما أن أدخل من البوابة حتى أتوه ويتسع الفناء وأتقافز أمام لسعات العصي التي تستحثني على الإسراع، دون أن أدري وبعد آخر عصا من معلم الفصل أجد طريقي مفتوحاً إلي الدكة الأخيرة، الجالس عليها ثلاثة الأمس دون أن يحاول أحدهم أن يتيح لي مساحة، ووسط صرخة الأستاذ: "اجلس يا حمار" أتخيل أنني أجلس يلاصق جنب مقعدي حرف المقعد لا أكثر.

— دول عيال ولاد كلب ما يستاهلوش، حرقوا دمنا وخلاص.

كان عبد العال يطل بجسمه من النافذة وهو ذاهب ليصلي الظهر، فابتسمت. كنت قد ركزت على نظراتهم وهم يدخلون أرض الملعب، وبطنهم في قراءة الفاتحة وهم في وسط الملعب قبل البدء، وجريهم بالكرة وهم ينظرون في الأرض، وشعورهم بالخيبة لحظة التسديد البعيد، فأغلقت التليفزيون. التفت عبد العال

وقال معلقاً على ابتسامتي اللامبالية: يا رايق انت! ولم يكن ما قاله صحيحاً، فأنا منذ فترة طويلة فقدت رغبتى في التفرج على المباريات، فقط الدقائق الأولى، حيث ينصرف اهتمامي كلياً إلى المشاعر التي تلي المباراة، لحظات الخروج من الملعب، النظرات المتحسرة وهم يتقنون بآذانهم صيحات الجماهير، والهروب كأسرى من تتبع الكاميرات والفلاشات، حيث لا معنى حقيقي لكلمة مثل: الرياضة غالب ومغلوب. نصحتُ السيدة بالامتناع عن العلاج لثلاثة أشهر، وذكرتُ عبد العال برأى الذي يعرفه:

— مش التعادل برضه كان احسن؟

كان قد ملّ من عشقي لحالات التعادل، وما يليها من حالة غامضة من الرضا، بين الفرح والحزن، وكنت أعرف أنه سيشيح بيديه خلف رأسه وهو خارج من البوابة بضيق ويقول:

— والنبي كفاية فلسفة!

لم يكن هناك من بُد — تحت وطأة الهواجس التي ظلت مسيطرة عليّ طول الوقت — أن أقرر الانصراف معتذراً للناس، الذين لاحظوا أنني قلق بالفعل، وأن أذهب إلى الوحدة العربية التي كنت بها قبل أربع وثلاثين سنة، قبل أن ينتهي اليوم الدراسي، لأرى بعيني إن كان إبراهيم يجلس على دكة في الفصل

أم لا. في خطوات قليلة، اجتزت الفناء، ارتفع كثيراً عن الماضي أو غاصت الفصول ذات الطابق الواحد، ولم تكن النخلتان عاليتين كما كنت أتوقع، وحل محل سور الجازورين صف من نباتات الجارونيا المورقة، وتشابكت أغصان الياسمين في قوس أعلى البوابة، وبدأت شرفات البيوت المطلة على الفناء قريبة جداً، وحين دخلت إلى ذات الفصل، دمعت عيناى، ففي ذات الدكة الأخيرة، كنت أراه يجاهد كي يضع ساقه النحيفة بجوار الثلاثة الذين بدوا كأنهم استراحوا لهذا الوضع. كنت أكثر من شعر بآلام هيمة وأنا أوقظه في صباح اليوم التالي، حين وجدت حرارته مرتفعة، وكان صامتاً، وعيناه تتظران نحوي بتوسل وضعف، ووحدى كنت الذي أعرف — لا أمه — أنه لا يود الذهاب إلى الوحدة العربية في اليوم الثاني.

طعم الليمون

تأتيني يارا دائماً بعينيها الواسعتين صريحة، ووجهها القمحي
بريئاً وضحوكاً، تركض حول أشجار الليمون وتمرح منتشية.
تقول: امسك يدي. وتشدني، فأبدو سعيداً وعجوزاً ومرهقاً. أخرج
من جيبي مشطاً وشريطاً أصفر لألمّ شعرها المنسدل فأحس بقلبها
الصغير فرحاً ومتقافزاً. تعاود الاختباء بين الأشجار وتقول:
امسك يدي يا بابا. وحين يستحيل الجو مظلماً، أسمع صوتها
مرتاعاً وبعيداً، وتكون يدها الصغيرة قد انسحبت لتوها من بين
أصابعي. أقبض يدي بشدة وأصرخ: يارا.. يارا. فتهزني زوجتي
وتضيء النور لتناولني الكوب. أنتبه محققاً في الماء، أردّه
بارهاق، فيما أكون محتاجاً لكوب من الليمون. تحكم الغطاء حول
نفسها وتعود للنوم. في الصباح قالت إن صحتي لن تتحمل ذلك،
وإنني طبيب وأعلم أكثر منها أنني ربما احتجت إلى استشارة
طبيب نفسي، إذ لا يمكن لأي شخص أن يستهلك كل هذا الليمون.

وبكت، لأن رائحة الليمون لم يعد بالإمكان إزالتها من الأطباق والأكواب والملابس، وأن يارا التي تجيئني كل ليلة ماتت قبل السبوع لسبب لا نعرفه، وأن خمسة عشر عاماً قد مرّت ولم يمنحنا الله أطفالاً، فلماذا لا أريد أن أصدق. بكت بانفعال دون أن تفتن إلى وجود صديقي الذي استأذن مرتبكاً، وعند الباب التفت مؤكداً:

— الغدا يوم الخميس عندنا.. وفاء مُصرّة.. لا تتسوا.

وفاء طفلة الوحيدة، في عمر يارا، تحب الليمون وترتمي فوقى بكل براءة لتمنعي من الانصراف حين تراني متعجلاً في شرب الليمون، أو ناظراً في ساعتني. أستجد بصديقي فيبتسم في شماتة رافضاً التدخل. أضربها بظهر يدي مستمتعا بالفرقة على صدرها الصغير الذي يرفع الثوب بلا سوتيان، فتعيد الهجوم مبتهجة برضوخي أمام ضحكها الجذل وشعرها المنسدل للخلف، فلماذا لا ترتمي في صدري أكثر، لألم شعرها المبتل بالعرق بشريط أصفر وأحس بقلبها المتقافز، تلك البنت التي تكبر كل يوم، مازجة طفولتها بالأنوثة بينما ينتابني الوهن؟

ضغطت الجرس فأحسست بوقع أقدامها المسرعة وضحكاتها المشرقة وهي تتعلق برقبتني وتضم ساقها حولي. خرجت الأم من المطبخ مرحبة بنا وصرخت:

— وفاء يا مجنونة.. عيب.. عمك تعبان من السلم.

همست زوجتي بأن وفاء كبرت، ولا ينبغي أن أسايرها في
الهزار بهذا الشكل. سألتها — مستغرباً من حبها لإفساد كل لحظة
جميلة — إن كانت تشعر بالغيرة. ردت في برود:

— لا أغير.. والأم حين قالت عيب لم تكن تقصد وفاء وحدها!!
أفسدت اليوم الجميل بملاحظتها السخيفة، وأعادت سؤالها
الجارح عن الليمون:

— قل لي سبباً واحداً يجعلك تحب هذا القرف!!

لم يكن وحده الليمون، كان الخوخ نياًً وصغيراً، وقطوف
العنب خضراء ومدلاة، والجميز غير المختن والنبق والبلح
الصيص الذي يشلبن اللسان في أيام الصيف. لم يكن وحده
الليمون. والبداية ربما كانت بعيدة فعلاً ويصعب تحديدها، لكن
الكوب الذي أعدته البنت وفاء نبهني لطعم قديم ورائحة بعيدة
وبدائية، وعطش لا يرتوي إلا به. لم أكتف ببيعة الليمون،
فاهتديت إلى أماكن زراعته، أمضي العصري بين أشجاره،
تتغلغل الرائحة في جسدي وملابسي، فأقطف الأخضر والأصفر
الناعم، أشطره بأسناني وأمتص عصارتة حادة ولاذعة.
أحببت البذر والقشر بمرارته، واستطعمت الفاسد وهي تجمعها من
الثلاجة فصرخت:

— لم تعد هذه شقة!

لم تمرض يارا ولا بكت، وفي سبوعها كانت تنتظر إلينا مفتوحة الفم والعينين كأنها تريد أن ترضع، حتى ألقيتها الثدي وكنت أوقد الشموع في انتظار هانم فودة لتكحل العينين، وترش الملح، وتنتثر الحبوب السبعة في أركان البيت لكنها لم تحضر، فانقبض قلبي واضطربت زوجتي لاحتباس اللبن. هزرت يارا فكانت شاحبة وممتلئة، وخطفتها أُمي في لهفة و بكت:

— البنت ميتة وشبعانة موت يا بنى!! حرام عليك..؟

سقطتُ من يدي فقامت مفزوعاً. قلت إن يارا كانت تلعب هنا حولي، وأشرتُ إلى أشجار الليمون. كانت تمرح منتشية وربما لم تنتبه للبئر. صرخت، فمددتُ يدي، تلامستُ أصابعنا بالفعل وهي تحاول التشبث بكفي، لكنها سقطت ولم يعد بمقدوري نسيان الذعر في عينيها، أو توصل الأصابع الصغيرة ذات الأظافر وهي تتشبث بكفي. راعني وجود بئر بهذا العمق في حقل ليمون صغير فظلت أصرخ: يارا.. يارا.. حتى أفزعنتي شمس العاصري نافذة من الشباك المغلق، فيما لم أعود النوم في الظهيرة. ناولتني كوب الماء فرددته بعنف:

— أين الليمون؟

ارتفع نسيجها وهي توقظني:

— ليس وقت الليمون.. قم.. وفاء ماتت.
انتفضتُ واقفاً غير مصدق، فأشارت إلى الخارج:
— اسمع الميكروفون!

كان يحتضن ابنته في ذهول ويهزها كأنه يرجوها أن تستيقظ:
— وفاء.. وفاء.. ردى على بابا يا حبيبتي.

كانت ممددة في استسلام كأنها نائمة، مبلولة الشعر كأنها خارجة من حمام، بينما كانت الحجرة معبقة برائحة الليمون. خامرني شعورٌ أنها ستفتح عينيها وتعاتبني فأدرتُ ظهري وبكيت. كانت في عيادتي أمس مع أمها، لم تتعلق برقبتي ككل مرة وإن احتفظت بنفس المرح. قالت الأم إن الزيارة بخصوص وفاء، دورتها الشهرية منقطعة، بلعت ريقها بصعوبة وسكتت. أشرتُ إلى سرير الفحص، فهجمت رائحة الليمون بشكل مفاجئ، وبدا صدرها كبيراً وبارزاً، فيما ظهر الانتفاخ أسفل البطن واضحاً. سألتها إن كانت تشعر بدوخة أو غثيان أو تميل إلى النوم والكسل والهبوط، فهزّت كتفيها مستغربة وغير فاهمة. بلعت ريقِي وأبلغت الأم، فخبطت صدرها وصرخت:

— يا سنتك السوداء يا وفاء.. حامل!

وقتما ترد على بالي يتشبع الجو برائحة الليمون، وأتوق لرؤيتها. أندفع تاركاً خلفي كل شئ. ببراعة تقطع استحمامها

وتفتح الباب كأنها تتوقع حضوري:

— أهلاً.. أهلاً.. تفضل يا عمى.

أبدى تراجعاً حين أشعر أنها وحدها، فتشدني مستغربة ومبتسمة:

— ادخل يا أخي.

وتستأذن لتكمل حمامها، فيما أسمع رشرشة المياه على الجسد،
وغلق الصنبور، وحركة الفوطة، ووقع أقدامها الصغيرة في
الطريقة قادمة من الحمام. على كنية أمامي مشطت شعرها فيما
ازداد عبق الليمون، وكان ثوبها المنزلي رقيقاً ومرتفعاً أمام
نهديها الصغيرين. قالت إن أباهما لن يتأخر، وأنها في السوق. ثم
لمت شعرها بشريط أصفر وابتسمت، فبان جبينها مشرقاً:
— سأعصر ليموناً.

كنت أرى انبثاق الأنوثة من الطفولة، فوددتُ لو أضُمها،
لكنني تذكرتُ ملاحظة زوجتي فقمْتُ واقفاً. قالت مندهشة:
— والليمون يا عمي؟

وبينما كنت أصفق الباب خلفي، كان الكوب في يدها وهي تهز
رأسها متعجبة.

رغم ضربه المباغت والموجع وصراخها المتألم، لم يتلق رداً
على سؤاله الملح عن الفاعل، وفشلت الأم في الوصول إلى

الحقيقة عندما اكتشفت أن البنت لا تفهم ما يقصدونه. سألني إن كان استحمامها مكان أمها يعد سبباً، فقلت إنه احتمال ضعيف لكنه وارد، خاصة وأن عذريتها لم تزل سليمة. قال إنه يشعر أن ابنته سُرقت، ولا يدري كيف يتصرف، وأن الحل ربما يكون في يدي، رفضتُ ما يلح إليه:

— تعلم أنني لا أجرى عمليات إجهاض.

كان صوت الميكروفون واضحاً، وكنت مأخوذاً لا أصدق أن ينتهي الأمر على هذا النحو المفجع والسريع. أشعر بالخجل أمام جسدها المسجى دافئاً ومضمخاً بالليمون، عليه آثار الدموع والضرب المبرح. يداهمني يقين بأنني تخليت عنهم بالفعل، وأنهم أجبروني علي الكذب، حين اتفقوا على مداواة جرحهم بطريقتهم، فشربت وفاء السم بنفس الرضا والبساطة كما تشرب الليمون، لأكتب في تصريح الدفن أن سبب الوفاة انفجار مفاجئ بالزائدة الدودية.

منطق آخر للجدل

كان أمراً عابراً، لكنهن دفعنني إليه بجلستهن الغريبة، تلك اللاتي يحطن بها صدورهن بسواعدهن المضمومة، كأنهن يحافظن على شيء ثمين، وحركات أيديهن التلقائية للتأكد من قفل أطواق ملابسهن، وهواجسهن الدائمة أن أحداً يتلصص على هذه المنطقة أو يسدد بصره نحوها. وربما دفعني إليه ما وصلني من تصورات عن اعتقادهن بذلك.

كان أمراً عابراً، لكنه عنّ لي أن أطرحه للخروج من اعتلال المزاج الذي أعاني منه، وتمضية لما بقي من محاضرة مملة في التوعية بمخاطر الإنجاب، بيد أنني انسقت — لا أعرف لماذا — لإقناعهن بما قلته عن أن الثديين ليسا سوى غدتين لإفراز وتخزين اللبن، غير أنهن يستخدمنهما في غير ما خُصّصا له، وقلت إنهن ربما لا يعلمن أن هذه المنطقة لا تختلف عن أي جزء آخر من الجسم، ولا تبدو في الحقيقة مثيرة للانتباه في فصائل

التدييات والمجتمعات العارية والقبائل البدائية، وأضفت أن الأمر برمته لا يعدو غير خدعة العرض والإخفاء التي كان على الرجال أن ينتبهوا إليها.

كنت منساقاً بشكل غريب، ولم أكن لأرضى سوى بتسليمهن التام، فرحت إزاء صمتهن واتساع أعينهن أسوق الأدلة، مستنداً في إثبات مقولتي إلي لباقتي وقدرتي على الإقناع، وشاحداً تاريخي الطويل في توصيل ما أريد قوله وقتما أريد وكيفما أريد، مشيراً بصراحة، ودون أن أحدد، إلى ثلاثة في هذه القاعة متوهجات يعتبرن أن أنوثتهن تتمثل في الجلوس بالملابس الداخلية، والتبول — حين لا يراهن أحد — واقفات، والنوم على بطونهن، دون أن تشير إحداهن إلى صدرها النموذجي. واتخذت من اعترافهن ذريعة للوم أربعة ذوات أثناء ضامرة، يضعن قطعاً خلف حمالات صدر مبطنة، ويفرحن مؤقتاً أثناء الحمل والرضاعة حين ينتفخا باللبن، ثم يعدن للاكتئاب والحشو بالقطن بعد الفطام. وإمعاناً في توضيح الأمور أشرت — ولم يكن يجب — إلي أن اثنتين هنا على الأقل قد أزالتا تدييهما جراحياً، وأنهما طبياً ما زالتا كاملتي الأنوثة إلا في نظر زوجيهما.

اعتبرت صمتهن موافقة، واسترخاء أذرعهن المضمومة وجلستهن المفرودة وعيونهن المفتوحة تواطؤاً على الخروج قليلاً

عن موضوع المحاضرة، والخوض في أمور كهذه بشكل تفصيلي، وقد بدوُن – عكس أول المحاضرة – مطمئنات، لا يساورهن قلق أو شعور بالاستعجال. وانضمت إليهن ممرضات وموظفات وشغالات. أبدأ بالكلام العادي، فتشدني أسئلتهن الجامعة إلى مناطق أخرى. يشتط الكلام بعيداً، لكنني ما ألبث أن أربط هذا بذاك. وكعادتني في إنهاء المواقف عند الذروة، واختباراً نهائياً للتواطؤ الذي افترضته، نظرت في الساعة وقمت بشكل مفاجئ، متعللاً بأنني أثقلت عليهن بهذا الكلام الفارغ.

كنت أشعر بالانتصار وهن يستوقفنني بعيونهن بعد المحاضرة، أمام القاعة، ثم في حديقة المستشفى، ويسألن أسئلة خاصة. وإمعاناً في التأكد من الانتصار كنت أستفسر عن تفاصيل خاصة، مدعياً أهميتها في دقة التشخيص، ومن ثم الحل، فكنّ – لدهشتي – يبْحَنَ بأكثر مما أتوقع، حتى أنني بدوت بالغ الصلف وأنا أسحب نفسي من بينهن ناظراً – مرة أخرى – في الساعة، فيسدلن الطرح، ويعدن تدريجياً إلي التحفظ كلما اقتربت من البوابة، وهن يرجونني أن أحدد محاضرة ثانية لاستكمال النقاش.

في المحاضرة التالية كن متألقات. يرتدين أجمل ما لديهن. كانت (نهى) في الوسط أمامي مباشرة، تعاتبني بعينيها الناعستين

وصدرها المنتصب في شموخ، منذ أوعزت إليها في محاضرة سابقة، وظللت أضغط على مواطن الضعف التي أعرفها حتى لانت. وحين أحسست أن صدرها هو مصدر الإعجاب، تعلتُ بأن ورائي موعداً هاماً، لكنها ظلت بصدرها المنتصب تطاردني لثلاث ليالٍ في حلم واحد.

كانت نظراتهن حالمة، حتى أن الرءوس انكشفت وسط المحاضرة فلم تسع الأيدي لسترها. انقشع الخجل، ولم يبد تحفظ من أي نوع. وكنت أتكلم بآلية ما أزال، يعاودني اعتلال المزاج، وفقدان الحماس لأي شيء: تنظيم الأسرة، التتقيف الصحي، الجرائد والتلفزيون والمستشفى والمقهى وبيانات الحكومة.. إلا سجائري، ألتهمها وأطرد الدخان من فمي بملل كأنني أبصق. ألمح إليهن — وأقصد نهى — بأن لا يجئنني في الحلم، صراحة أو متخفيات في صورة سعاد حسني، لأنني أتعذب حقيقة من انتحارهن المتكرر في الحلم لكثرة إغراضي عنهن، حتى أنني لم أعرف على وجه الدقة إن كانت عينا نهى العاتبتان حزينتين لما حدث مني في المرة السابقة، أم لما حدث في الحلم، أم لأن امرأة — على غير العادة — ألقت الصباح عليّ في الطريق العام ولم أرد، فأسرعتُ الخطي كأنها تهرب وهي تنتظر بخجل شديد فتهيأ لي أنها هي.

ارتبكتُ حين وقع نظري فجأة على سعاد حسني، كانت متألفة ومنطلقة، تضع يدها على رأسها والأخرى في خصرها وتتنظر بدلال من تحت إلى تحت. كان من الصعب — سوى من الصدر فقط — أن أفرق بينهما حتى في الحلم. أخرجتُ سيجارة، وانتهزتُ فرصة إشعالها لأتأكد من صدرها، فوقعت عيناى على الخبر الصادم أسفل الصورة. كان مفاجئاً كما في الحلم وغير متسق تماماً مع انطلاقة الصورة وتوهجها. وكنت أريد أن أعرف وقع الخبر عليهن، وخاصة نهى، لكنني آثرتُ ألا أعرف، وانتهيت دون أن أربط هذا بذاك، وخرجتُ إلى حديقة المستشفى التي بدت ضيقة على غير العادة. عادت الأيدي تستر الرءوس بالطرح والوجوه ترتدي نفس الأقنعة التي دخلن بها. عند البوابة، أمامهم نهى التي وقفت بارزة الصدر، كن يتوسلن لانتزاع موعدٍ لمحاضرة أخرى، لكنني لأسباب أخرى غير القسوة هذه المرة اعتذرت.

اقتربت عجريات ثلاث برباياتهن من باب المستشفى، كدن يمنعنا من الخروج وهن يغنين بالربابة والإيقاع لحن "البنات بيضا"، فما الذي دفعني أنا الذي لم يعد يجذب انتباهي شيء للتلكؤ، والنظر إليهن وهن يصفقن ويوسعن الدائرة دون أن تنسدل الطرح، أو تحل لتتحزم بها الخصور كما افترضت لتوي. ودون

أن أنتبه لمكر الغجريات اللاتي أسرعن الإيقاع قليلاً، بدا أن الأربع اللاتي يضمن قطناً لا يملكن السيطرة على أجسادهن حيال اللحن، ولم تعد اللتان أزالتا ثدييهما جراحيّاً مكتئبتين، وبدتا — ظاهريّاً وطبياً — كاملتي الأنوثة، تهتزان مع اللحن.

أحطنتني فلم أستطع الخروج. وفشل زينهم المعاون الذي كان يبتسم في كسر الدائرة، فطوح العصا في الهواء من خارج الدائرة فتلقفتها وأسندتاها بين صدريهما وصارتا تتمايلان بخصريهما وجذعيهما، مرة على ساق والثانية على الأخرى، في تناغم دون أن تسقط العصا، وهن يبتسمن حتى شعرت أنهن يجادلنني بطريقة أخرى بدائية، دون أن أستطيع الخروج.

حتى هذه اللحظة، لم أكن قد قررت اللجوء إلي العصا لتفريقهن، إلا عندما تحولت الغجريات باللحن إلى "مالي بيه الواد الخاين" فكنت أهش بطرف العصا على الأرض أمام أرجلهن، متقدماً إلى الأمام والخلف كي أفتح ثغرة، ولكم بدا الأمر بالغ الصعوبة، متطلباً المزيد من التحرر والرشاقة للمحافظة على ذات المسافة فلا يضيّقنها مع التلويح بالعصا دون إصابتهم. كنت أتقافز برشاقة واضعاً يدي في خصري أو فوق رأسي وهن يضيّقن الدائرة كأنهن سيهجمن، وحين يشعرن بفزعني، يوسعن الدائرة مرة أخرى ويصفقن بإيقاعهن المتعالي. كأنما أرقص

رقصة التحطيب لا أبحث عن ثغرة للخروج، كنت أتعجب من
نضارة وشقاوة أثنائهن التي برزت خلف البلوزات الضيقة
والهدوم المنزلية، حتى أنني لم أكن غاضباً وصدر نهى يهتز
كأرنبيين طليقين، وانتصارها على عطيات التي تركتهما متهدلين
ومرهقين. لكنني كنت غاضباً وأنا ما زلت أتقاقر لا إرادياً في
الهواء، لأنني لم أعرف منذ متى انتهى اللحن، ولا متى سقطت
الجريدة من يدي علي نفس الصورة المنطلقة وهن ينظرن جميعاً،
فأسرع بالخروج من دوائرهن المغلقة الصامتة، متفادياً النظر في
عيونهن المفتوحة، وسواعدهن المحيطة بصدورهن كأنها تحيط
بأشياء ثمينة، وحركاتهن التلقائية التي تتأكد من قفل أطواق
ملايسهن.

حاليا.. عمليات

عشرة أشهر وأنا أسير لنداء داخلي، يوحى إلي فأنتقل بحالاتي بين المستشفيات الخاصة بالمدينة. نداء مبهم وغير منطقي، لا أجرو على التصريح به، بينما أبرر اختياري في كل مرة باتساع المكان ونظافته، أو انفصال العمليات عن غرف الإقامة والزوار، أو الخدمة والتمريض ورخص الأسعار. يبدأ النداء بعيداً وملتبساً كفجر كاذب، ثم لا يلبث أن يشرق كالحقيقة ويتوهج، فأحدد المستشفى وأذهب مفعماً بالأمل، أصدق في بنات العمليات فلا أجذك، فأتم مهمتي وأخرج مستسلماً لحالة من اليأس تمتد أياماً، قبل أن يومض النداء الغامض داخلي ثم ييزغ، فأوعز لأهل الحالة التالية بالذهاب إلى مستشفى آخر.

— اسبقني ع الصفا..

هاتفني زميل مستجداً كيف يتصرف وامراته تنزف بشدة من مجيء المشيمة قبل الجنين. بآلية قلت: الصفا. ولبست هدومي

وتوجهت إلى هناك، وعلى مدى عشر دقائق — قيمة الطريق — لم يشغلني النزيف بقدر ما كان الحدس يومض بداخلي ثم يشرق حتى ملأني كنور الضحى، حدس لا يداخله شك بأنني سأراك الآن حتماً حالما أدخل من باب المستشفى — مثل آخر مرة — واقفة تنبهين على الشغالات بأن يُدخلوا مريضتي حجرة (٧) دون أن تنتبهي إلي وصولي إلا وأنا أجذب القميص من أمامك وأتجه إلى المكتب قائلاً: العمليات على طول.. وبلغني التخدير.. الجنين تعبان. هل انبنى حدسي علي آخر عملية أجريتها هنا منذ عشرة شهور وكانت زوجة لزميل أيضاً؟ ربما، لكنني لم أجذك، فخبأ الإشراق ولم يحدث من ثم ما ارتسم بداخلي من فتحك لباب المكتب وأنا أغير ملابسي، ودهشتك لسرعتي في اللبس، وإحجامك عن استبدال القميص الخطأ. أو أجذك حين أخرج من غرفة المكتب واقفة في غرفة العمليات معقمة ترتدين الجاون المفتوح من الخلف والقفاز أمام منضدة الآلات. لم أجذك، ولم تكن مجرد لحظة تصيبيني فيها خيبة أمل أشعر بها، إنما كانت ذروة اليأس، ولا أدري كيف امتدت يدي لتتناول القميص من يد نهى الممدودة، فسقط قميصك الذي حرصت على ارتدائه لعشرة شهور من تحت إبطي.

"إيه يا عم الحلاوة دي؟". شهقت نهى وصابرين وإكرام وأنا

أدخل ذراعي في كمي الجاون، فانطوت ابتسامتك للمفاجأة على عتاب من سلوكهن الفج، والذي بدا كأنه خارج نطاق السيطرة، وبدا لي لأول مرة أن الآلية التي يسير بها العمل داخل غرفة العمليات لم تكن وليدة انسجام بينكن، بقدر ما كانت تنفيذاً لأوامرك الخفية وهن يستشرنك همساً، فتحدقين بعينيك الواسعتين، تفكرين لوهلة ثم تهزين رأسك رفضاً أو موافقة، فتسير الأمور لمن لا يعرف بانسجام، بداية من تجهيز أدوية التخدير والمنظار والأنابيب الحنجرية بمقاساتها المختلفة حتى التأكد من الأكسجين في الاسطوانة، ولن يدرك الغريب — مهما بلغ انتباهه — أن بصتك العابرة نحو الحوض كانت تعني وضع الفوط والفرش بعد العملية في الماء وإضافة الكلور، أو أن إيماءتك نحو الغسالة تعني نقل الفرش إليها وتشغيلها. حتى نشر الفرش ولمه وتطبيقه ووضعه في جهاز التعقيم بإيماءة تختلف عن تلك الأخيرة المتفحصة لكل أرجاء الغرفة قبل أن تصير جاهزة لاستقبال عملية جديدة. لم تفوت البنات فرصة إلا ويحدقن فيّ ويتهامسن، فاستشعرت أنهن خارج السيطرة.

بإخراجي للجنين، وإغلاقي للطبقة الأولى من الرحم، انتهت عشر دقائق من التوتر، وعدت — خلال باقي العملية — أرقبك وأنت منشغلة بمناولتي الآلات التي سوف أطبها، تنتقلين بين

منضدة الآلات وطبق الماء الساخن، تنشيف المجال، تقصين فتلة وتلضمين إبرة جديدة، وتعذرين عن كثرة اصطدامك بي، فيما بدا أنك تعملين وحدك بينما نهى وصابرين وإكرام — عكس كل مرة — منصرفات إلى العناية بالجنين، أو الهمس والنظر من تحت لتحت. كنت حادة قليلاً، تترقق عيناك وأنت تنظرين إليهن، فلا يستجبن بنفس السرعة. فككت القناع عن فمي منتظراً أن أكتب لك خطوات علاج المريضة، فأأمل — ككل مرة — المناطق التي ترشح بالعرق أعلى الثديين عبر قميص العمليات بمجرد أن تخلعي الطاقية الورق عن رأسك وتتدلى ذؤابتها على رقبتك وأنت تمسكين ملف المريضة وتضعينه على صدرك وتشيرين إليّ وإصبعك على الكلمة التي تريدينها إن كنت أقصد جلوكوز كل ست ساعات أم ماذا، أقول: أين؟ فتضغطين بإصبعك أكثر على الملف والذي يضغط أكثر على جانب ثديك، فأقول دون أن أرفع عيني عن إصبعك والملف: جلوكوز ٥% كل ست ساعات.

ماذا بوسع ممرضة احتد عليها طبيب، سوى الغياب بضعة أيام أو العمل — على أكثر تقدير — في أحد المستشفيات الأخرى؟ وماذا كان عليّ سوى أن أنتظر مجيئك ثم أجوب بالترتيب كل هذه المستشفيات ممتعاً عن القهوة التي تعدها الشغالات بذات المقادير وذات الوش بأمر من نهى وصابرين وإكرام، لأنهن

يتعمدن عدم الإدلاء بأي حديث عنك أمامي مهما بدا عابراً أو تلقائياً، كأنك لم تكوني رئيسة هذا المكان يوماً. صمت مريب لا يعني سوى أنني جننت، وأنت لم تكوني سوى برأسي، أو أنهن تواطن معك على تعذيبي، نفس التواطؤ الذي أثر فيّ على مدى ثلاث سنوات وجعلني أخضع لتأثيرك الجسدي والروحي، الناتج عن كونك تبدين طوال الوقت على هذه الدرجة المذهلة من التوافق والانسجام، فلا أجري أي عملية إلا هنا. اعتدت حتى في الحالات التي لا تتطلب السرعة أن أجيء مبكراً، ربما قبل الحالة، أدخل المكتب فتأمرين الشغالة بإعداد القهوة في كوب، منبهة في كل مرة على المقادير والحرص على الوش، لأستمتع كعادتي من بعيد بالنظر إلى منبت شعرك الناعم الملموم عند رقبتك النحيفة وأنت تقدمين القهوة وتحنين قليلاً لتضعينها أمامي فيبين منبت الثديين، وقبل أن يظهر كاملين تعتدلين بسرعة وتقولين:

— نحضّر دلوقت واللا اما تيجي الحالة؟

أقول: شوية. على أمل أن تجلسي قليلاً. لكنك تنصرفين. يلاحقك السؤال: خيوط إيه اللي عندك؟ فتلتفتين عائدة تعدين براءة على أصابعك الرفيعة أنواع الخيوط وأرقامها، بينما أحملق في صدرك حتى تنتهي لأتخير: كروميك ٢ بدون إبرة، وفيكريل ١

علي إبرة قاطعة. أنادي ولا أشبع فتلتفتين: يا داليا.. اللبس. يا داليا.. التعقيم. يا داليا.. المريضة تخش الحمام أولاً. وحين أدخل أجذك قد أعددت كل شيء. فقط أمد ذراعي في كمي الجاون، وتشيرين إلى الشغالة فتربطها من الخلف، ألفت فتكوني قد جهزت القفازات رقم ٨، وتشيرين إلى أصابعي فأفردتها كي تلبسينها لي بنفسك.

شعرت للمرة الأولى بضيقك من بطء استجابة البنات لإيماءاتك، تلك التي تحولت إلى نظرات حادة وصامتة ومترققة كأنها ستدمع كي لا أشعر أثناء العملية بعدم الانسجام الذي وصلني بالفعل، ودفعك بعد أن انتهيت من العملية إلي الانصراف بالآلات لغسلها بنفسك في صمت، تاركة لنهي ومن خلفها صابرين مهمة إحضار ملف المريضة لأكتب العلاج، بينما أعزو ابتساماتهن وشهقاتهن إلى هذا الوقت من العام الذي يتخفف فيه من ملابس الشتاء فيبدون فيه جميلات أكثر من المعتاد، ويتقن إلى مخاطبة الرجال، وهن يتحركن بخفة في ملابسهن الخضراء.

لم توقفني شفة نهى السفلى الغليظة مع ذلك الجزء المكشوف من الرقبة والصدر الكبير المرتفع لأنني أعرف أن الصورة ستختل حالما تدخل عناصر أخرى كالבطن والجذع والردفين، ولا وجه صابرين الأبيض كالشمع بعينيها الخضراوين وسننتيها

الأماميتين البارزتين على جسد نحيف بلا صدر أو أرداف. لم أكتب كلمة واحدة، معتبراً أن حقاً من حقوقي قد انتقص، وبحثت عنك، لأن الرقبة ليست ذلك الجزء الأسطواني الذي يحمل الرأس، إنما الرقبة مع الكتفين مع عظمتي الترقوة، مع حجم الرأس ونوع الشعر وتسريحته في هذه اللحظة وعلاقة كل ذلك بالوجه، تلك هي الرقبة التي تختلف قيمتها صعوداً وهبوطاً مع هذه المتغيرات، لتصل إلى ذروتها معك في قميص العمليات الأخضر، ذي الطوق المفتوح على شكل ٧، والذي يسمح لها أن تبدو طويلة بالفعل وملساء ونظيفة بلا اختلاف في اللون، مصحوبة بذلك الإحساس الإضافي بالطول الناتج عن رفعك لشعرك الناعم من منبته أعلى الرقبة وضمه في كحكة، مع وجهك المستطيل ونظراتك الحادة والمنتبهة دائماً، وانسدال كتفك قليلاً تحت القميص نصف الكم والذي يضيف على ذراعيك المكشوفين طولاً أيضاً ربما أكثر من اللازم. لا أعرف من أين أتى كل هذا الغضب لأقذف بالملف وأزعق: "فين داليا؟" فتنتصبين أمامي على غير العادة تلمين طوق سترتك بيد وتمسكين الملف بيد: "أفندم". وتتسع عليك البيجامة، وتبددين في لحظة أرفع من ذي قبل وأصغر، بينما لاح لي أنني أعنفُ طفلةً بأنه لا يصح أن تترك ملف المريضة لأحد غيرها، وأنت تومئين بالموافقة كتائهة وتلمين

الطوق بحرص أعاظني. جذبتك من ثيابك لتنتهي فانفكت ثنية الطوق من يدك، وانبتقت دموعك دون أن ترتفع يدك مرة أخرى لتخبيء صدرك الذي أطل أكثر من المعتاد من فتحة القميص، أو تخبيء اسمي الذي بان مكتوباً بالأحمر على جيبك الأيسر، وهو ما زاد انفعالي، لأنك أول من يعرف أنني لا أحب أن يرتدي قميصي أحد. حتى انتبهت — بعد أن أمرتك بالانصراف وأغلقت المكتب وغيرت هدومي — إلى أنني كنت أيضاً ألبس قميصك المكتوب على صدره: "داليا.. عمليات"، عندها — فقط — أدركت لماذا فتحت علي الباب وأنا ألبس قبل العملية، ولماذا كان البنات يبتسمن ويشهقن بسوقية.

بإخراجي للجنين، وإغلاقي للطبقة الأولى من الرحم، توقف النزيف وانتهت عشر دقائق من التوتر، واكتشفت — خلال باقي العملية — أنني كنت أنظر إلى نهى على أنها أنت، وناديتها اليوم أكثر من مرة — خطأ — باسمك، مستشعراً مذاق قهوتك حالما ننتهي. لكنني انتبهت مستغرباً من سيطرة اسمك وتردده على غير العادة وحضورك الجارف، ولا أكذب لو قلت إن رائحتك تملأ الغرفة، ورائحة القهوة من اتجاه المكتب تملأ خياشيمي، وإنني أشم عرقك. استغربت هذه المرة لبقاء لحظة الإشراق بداخلي حتى خلعت الجاون، وقلت لزوجتي زميلي وهي بين الغفوة

واليقظة: حمداً لله علي السلامة، فخمشت قميصي. كانت تخمش القميص بيدها من ظهري كأني مريضة تفيق، غير أنها بدت خمشات ملحة، وبينما أتأهب للخروج ازداد الخمش. التفت، كانت الأصابع التي تتشبث بأطراف القميص تجذبني من طوقي بإلحاح، وتتشبث بالقماش والجلد، وأنا أحاول أن أفهم ما تريد، وحين نشبت الأظافر الصغيرة بشكل مؤلم لاحظته طبيب التخدير وسعى لتخليصها من قميصي، لم أكن قد انتبهت بعد إلى تلك الرقبة والصدر وملامح الوجه المستطيل، وذات حبات العرق النظيف في منبت الشعر المنسدل، وتلك البصة العميقة والحزينة في عيون محتقنة بالدموع والتخدير.

تركت القبضة الصغيرة جداً لزوجتي زميلي — والتي تشبه قبضة طفل — أثراً بقلبي الذي بدا كأنما ينتزعه أحد من مكانه، ونهى تسلمني قميصك الذي سقط من تحت إبطي. ذلك الأثر الذي دفعني إلي العزوف عن قهوة قالت نهى إنني الذي طلبتها لأول مرة، فأنت بها مبتسمة وهي تداري صدرها الكبير من الظهور فلا تفلح.

حمل الغزلان

هو الموعد، لا قبل ولا بعد. تنفرط القطرة الأولى فينطفئ كمصباح حلمي الخامس والثمانين. أغمض عيني وأدفن وجهي في الوسادة. هو الموعد، لا قبل ولا بعد. سلسلة مفاتيحه تخرج من جيبه. يبحث عن مفتاح الشقة. كأنه عرف حين مال على نتيجة الحائط ونزع ورقة اليوم مبكراً. لم يعد بإمكانني مداراة لمعان عيني، كأنما سأبدأ توأاً في البكاء أو انتهيت للتو منه. كأنه عرف. وضعت العشاء ولم أستطع أن أتكلم. حركتي بطيئة وفي يتحرك شبه خال. يصعد كوب الماء إلي فمي وينزل ولا أبلع. أقوم لأكثر من مرة وهو صامت، أتذكر الملح ثمالملعة ثم الشوربة. ألم الأكل أخيراً وأدخل المطبخ.

قطرة قانية، ليست لها رائحة الزفارة المعتادة، متأنية ومؤلمة. استبعدت أن تكون طمئناً، كي لا أشق المقابر، وأتيح للفرع أن يملكني. هكذا يكون الاتفاق: ينتظرني هناك، خارج المقابر

بمسافة، أخترقها فجراً، بعيداً عن أنوار الأعمدة، فترتمي في ضوء النجوم ظلال الشواهد وأشجار النبق والنخيل علي أرض سوداء. يزداد الفزع كلما توغلت. أسعى وحدي وبمحض إرادتي لمزيد من الخوف. آخذ الطريق اليمنى فلا أمر على شيء مررت عليه من قبل. لا ينطق لساني بشيء. أعلم أنني غير متوجسة، وأنها مجرد ظلال وشواهد وخرفشة أفرع شجر، وأوراق جافة أدهسها فتتبعث هذه الأصوات الخرافية، لكنني لم أستطع أن أهمل خطوات كأنها تتبعني ويداً توشك أن تلمسني. لم أصرخ، فالمقابر التي ظننتها مفتوحة أجدها حين أقترب مغلقة. اعتبرتها تهيوّات، مطمئنة لوجوده بالخارج، وأن ما يحدث على أي نحو قد يكون تحت سيطرته، فالأمر مرتب ربما لإثارة الفزع على نحو ما، والخطوات التي تتبعني — حين حدثت — لم أجدها. مرق من بين ساقي فجأة قطان: أحدهما أسود والآخر أبيض، صعدا سطح مقبرة. تسارعت دقات قلبي، وارتطمت برقبتي نفخة ساخنة، النفث، تقافز قلبي، نفخة أخرى حارة، النفث. من أين يأتي كل هذا الهواء الساخن؟ بدأت الأمور تتجاوز ما أتوقعه. استراحت يد علي ظهري. "إيه اللي جابك هنا؟". هزت صرختي الطويلة الفرعة خواء المقابر وأنا أهوي، فيما كانت اليد الكبيرة تقبض هدومي بجزء من لحمي، تمنعني من السقوط وتدفعني نحو

المقبرة التي بدت كأنها مفتوحة مرة أخرى. رد الباب بقسوة فيما لم يتصاعد صراخي الحاد متواصلاً وهستيرياً إلا بعد أن سمعت صوت فأس تهيل التراب بحق. كيف فتح الباب فجأة، وكيف خرجت يركض أمامي أرنبان أبيضان. كان الصراخ قد أفزعه وجعله يقابلني عند مدخل المقابر، ليربت كتفي. مجهدة كأنما أفيق من مخدر عام، أو إغماءة طويلة، أسأله إن كانت تكفي هذه الجرعة من الفزع والصراخ، وأسبوع من مرض قاطعت فيه كل شيء عدا البكاء المكتوم، فيلثم ظهر يدي.

كأنما تفتش نظراتهم عن شيء ما في بطني وصدري، تقتم التفاصيل، تراقب حتى مشيتي واهتزازات أعضائي، كأنما يعرفونني، أشعر بالخل وهم يتظاهرون بالشفقة. ينقطع كلامهم فجأة حين أدخل مكتبي. يبدو الارتباك، يعقبون في إجمال كأنهم يتحدثون عن أخرى "هي في نعمة.. يكفيها الهدوء". لا تجرحني الكلمات قدر ما يجرحني انقطاعها فجأة. يشيرون بأصابعهم لزميلي وأنا خلفه فلا يتوقف إلا متأخراً:

— الحلو ما يكملش.. فين العيب في الجسم ده.. حد يفه..همني.

لم أعد أعرف. تقاسيم جسدي نموذجية، يقول في ساعات الصفاء ذلك، وحين يحتمي طوال الليل بظهري، ويحيطني

بذراعيه ويريح كفتيه على صدري، وحين لا يأتيه النوم إلا
ووجهه مدفون في صدري. لم أعد أعرف، وهانم فودة الداية
العجوز ذات التقاطيع الحادة تمسك بفجور وغنج أعضائي وهي
تلف الغزل حول وسطي وتستخرج البرد من رجلي بمجمرتها
الفخار والعجين وتحثني كأنها تشجعني وتلعب حاجبيها وتضحك:
— ناقصك إيه.. القطي بقي.. آه يانا لو كنت راجل آه.

لم أعد أعرف، سوى أن الأمور لن تسير طويلاً علي هذا
النحو الهادئ، إذ يرجع الأمر إليهم — أبعد الناس إلى أقرب
الأقارب — بنظراتهم المباغطة تلك وأسئلتهم الصعبة والمتهمة:
— العيب عند مين؟

للأرانب البيضاء عشق خاص، إذ تركض حولي وتتفاقر في
أحلامي بعيونها الحمراء اللامعة ووبرها الأبيض الناصع.
أنتظرها فتجيء، فينتابني صحو ونشاط وألق طوال أيامي التالية.
لم تأت الأرانب الليلة وأتت نقطة أخرى من دم قان وهو نائم في
وضعه المعتاد، أعلم — من توتر يديه على صدري ودفء جسده
الملاصق لظهري وأنفاسه — أنه ربما لا يكون نائماً. كان اليوم
في عمله وتأخر قليلاً، ربما شرب القهوة عند زميل، أو مرّ على
نجلاء، لم يقل، كأنه حزين أو متعب. أغفو وأصحو وهو كما هو،
بنفس اليدين المتوترتين حول صدري، في منطقته المفضلة بين

الصحو والنوم، لا يتكلم. نقطة أخرى. أتحمس بطني. هل أقول له إن أمل ابنة خالي لم تكن تعلم أنها حامل حتى شعرت بمغص شديد. جاء الطبيب وقال: ولادة في السابع، والتقط بسرعة الولد الذي كان يتحرك في الرحم بينما الدم ينزل كل شهر، ثم ضحك وهو يغسل يديه وقال: حمل غزلائي. أغفو وأصحو ونجلاء تتشاجر معي، ويعلو صراخها وهي تأمره بعنف دون أن تنتظر نحوي "سيبك منها.. العمر بيعدي.. شوف واحدة غيرها.. ربنا يعوض عليك.. إيه رأيك ف..". مفزوعة أصحو فأجد نفس يديه الحانيتين تحيطان صدري، يهدئني من منطقتة المفضلة "إيه يا حبيبتي.. فيه حاجة؟" فيما هجرتني الأرانب البيضاء، تكررت مشاجرات نجلاء، وسقطت في أحلامي أشجار لم تعد تثمر.

كأنما الأمر برمته حلم طويل، مختلط ومتداخل، وكأنه كان يرتب لكل هذه الطقوس. يخامرني شعور بأنه الذي أوصى واتفق مع حفار القبور ولم يقل حتى يكون الفرع حقيقياً. كان يسمعي بشغف كأنه يعرف لأول مرة، مستبعداً الصدفة التي تجمع في نفس الليلة حارس قبور بامرأة تبحث عن الفرع وقبر مفتوح. هي الأمور تتكشف دون أن يفصح وهو يحيطني بين النوم واليقظة، فأعرف أنه هو الذي أحضر الثعبان وتركه في المطبخ، وحين فتحت الفرن وجدته مكوماً يبخ سمه في الفراخ المحمرة. صرخت

صراخاً هستيرياً، إذ كنت وحدي في البيت. التّم الجيران وموتوا
الثعبان، وجاء من عمله مفزوعاً. رمي الطعام وحمد الله أنني
رأيتّه وإلا كنا متنا. فزعه الحقيقي، وتوجسه من كل شيء،
ومساعدته لي في وضع الشيح في أماكن مختلفة فلا تنقم أنثى
الثعبان ممن قتل وليفها، جعل الرعب يملكني لأيام، وصرفني
عن التفكير في ضلوعه في الأمر مع هانم فودة التي اشترطت أن
يكون الفزع حقيقياً. لم أعد أعرف إن كان هذا من ترتيبه أم أن
الأمر لا تعدو أن تكون صدفاً والربط بينها تعسف كبير.

دم قان، قليل، متقطع ومؤلم، لكنه في مواعده الشهري
يزعجني ويهدم افتراضي. هل أتصل بالطبيب؟ سيسألني عن
تاريخ الدورة السابقة ثم يطرق كعاداته "دورة.. في الغالب دورة".
أصمت، يواسي، أعرف أنه يتخلى قليلاً عن يقينه العلمي ليخفف
عني. لم يعد لديه ما يقوله. يخفت الصوت. يخبو الأمل. أضغ
السماعة في صمت. أخشى الذهاب لطبيب آخر فأخضع لفحوص
مخزية وعلاج شرس ومناقشة لتوقيات فجة للجماع وتعليمات
بالنوم في وضع محدد ولمدد معينة.

دم دافئ وقان، أغنيات الصبايا تهاجمني، وهن يغنين بخوف
وغنج عن غياب الدورة في عودتهن المتعبة من العمل في
الغيطان، وينتظرنها فلا تجئ:

— "يا أول شهري ولا جاتتيش شهري.. يا خوفي من أهلي
يتبروا مني".

نفس الصبايا المتعبات من جمع القطن اللاتي غنين لي في ليلة
الحنة: "علّي باب الأوضة يا واد يا بنا.. علّي باب الأوضة لأحل
شعري واعملوهلك موضة يا واد يا بنا"

تغرق دموعي ذراع البنا الذي أعلى — قدر المستطاع — باب
الأوضة وباب القاعة وباب المندرة، لكنها لم تمتلئ بأطفال من
صلبه، يركضون ويمرحون فأخرج لهم صدري ككلبة لأرضعهم
وأرعاهم. دم قان وغزير وأنا أخبو. يفقد ثديي توترهما وتقلهما،
يعودان إلي وضعهما السابق كبالونتين انفقتا. يفك ذراعيه من
حولي كأنما إلى الأبد. أدخل الحمام، يأس مطبق وحر شديد.
أتححرر من ملابسي.. من الغزل الملفوف حول وسطي. أتححرر
من أحلامي وأستسلم للخواء.

القسم الثاني

بوابة الليل

كيف لم أشعر تلك الليلة، وأنا راقد إلى جوارها، أن ثمة أشياء غريبة تحدث، وأنا أراها تتسلل من الفراش لأكثر من مرة، ثم تضبط الحرام حولي جيداً على فرن القاعة الدافئة، بينما أتأرجح بين النعاس واليقظة، فلا أتذكر بالتحديد متى غادرت الفراش إلى بيت الراحة، ومتى عادت إليه، وهي تستند إلى الحائط وتتألم. أحرق في سقف القاعة القريب، بعروقه الخشب وبوصه المشرب بهباب الفرن، أسدد بصري بتوجس نحو ظلال سوداء، تكبر وتصغر وتتحرك في ضوء لمبة نمرة خمسة موشكة على الانطفاء، أعلم أنها هدوم معلقة على الحائط. كتلة الهدوم القديمة التي كورتها وسدت بها ناروزة السقف درءاً للبرد والعفاريت، أراهم يسحبونها بالفعل محاولين النفاذ. يخذلني لساني، فلا يتلو آية الكرسي أو المعوذتين، ولا يطاوعني صوتي فيغادر حلقي للنداء عليها، حتى أسمعها تغلق باب بيت الراحة وتتساند على الحائط و تتحسس مزلاج باب القاعة، فيهتز ضوء الللمبة نمرة

خمسة أو ينطفئ حين تفتح:

— يا رب.

كانت قد اعتادت أن تطوقني بذراعيها وتحكى، وهي تحكم الحرام حولي، فيبث جسمها الحاني ذلك الدفء الذي نتلافى به سيرة الحرامية والعفاريت، فيقصر ليل الشتاء الطويل. بين النوم واليقظة، قبل أن أفقد قدرتي على المتابعة، تؤكد عليّ إن كنت في حاجة للذهاب إلى بيت الراحة قبل أن أنام. تخيرني مرة أخرى، لأنها تعلم أنني لن يكون باستطاعتي مجرد التفكير في القيام من تحت هذا الحرام إلا في الصباح، فالعفاريت تسكن الدار الكبيرة بالليل، وترمح خارج باب القاعة، لا يصرفها إلا أذان إبراهيم عبد المطلب من فوق جامع سيدي مبارك.

كيف طال الليل هذه المرة، ولم يستطع وابلور الجاز بوشه العالي أن يبعث الطمأنينة والدفء؟. هداً وشه ولم يستجب لإعطائه المستمر والمستमित نفساً من الكبّاس سوى بالمزيد من الخفوت، ثم انطفأ. رجته بالقرب من أذنها. نفذ خزّانه من الجاز الذي ملأته قبل العشاء، فهاجمتنا خرفشة بالخارج، ودهس لصوص وقطط، وعفاريت لقتلى وغرقى ومحروقين، يعبثون بالكرايب والمخلفات على السطح المهجور، ولم يعد بالإمكان مجرد التفكير في القيام من تحت الحرام، لإحضار القمع وصفيحة

الجاز وتعمير الوابور. يتبدد الدفاء وتسرى البرودة عبر الحرام إلى جسدنا، فنتوسل لنور اللمة ألا ينطفئ، قبل أن يعتلى إبراهيم عبد المطلب ظهر جامع سيدي مبارك.

ثمة أشياء غريبة تحدث، لا أدري كنهها بالتحديد، وباقي السكان غير موجودين. يشعرنا وجودهم ولو كانوا نائمين بالأمان، حديثهم خلف أبواب حجراتهم، أنفاسهم، حتى كحة الخارج منهم، ولو كانت مفتعلة، يشجع بها نفسه أولاً، وينبه الجن واللصوص كأنه يستأذن، فيخلون طريقه لبيت الراحة. تطوقني بذراعيها وهي ترتعد كأن ألماً متقطعاً يعتريها. أسألها عما يخيف اللصوص، فتقول: الأطفال الصغيرة، أولئك الذين يستيقظون في أي وقت من الليل ويبيكون. يتجنب اللصوص تسلق دار بها رضيع. من أي اتجاه تجيء الخرفشة؟ تهمس لي أن أكلمها بصوت عالٍ، يسمعه من الخارج. تجعلني أصرخ وأزعق لها بغضب. تتجادل معي وتطوقني أكثر بذراعيها فأتضاءل في حضنها، وأتساءل متى يخرج من بطنها المنتفخ أخي، ويبكى بكاءً غشيماً وبريئاً غير خائف، يحمينا من دهس وخرفشات، نعلم أنها ربما كانت لكلب أو قطة أو أرنب، وما حيوانات الليل غير صور يتخفى فيها الجن والأرواح والملائكة.

كنت أسمعها تغلق باب الراحة وتقول: يا رب. كأنها تتأدى

أحداً. لماذا طال الليل هذه المرة؟ ولماذا تأخر إبراهيم عبد
المطلب في الصعود إلى ظهر الجامع؟ فلم يتناه إلينا لغط أولاد
الحبشي ونسائهم وهن يستيقظن ويحلبن، ولا جلبه خروج
مواشيهم إلى الغيطان، ولم يحدث ككل فجر، فتعزق زريبة
الصيادين ويرتج الفرن الذي ننام عليه لخبطة فأسهم العفية، فنعلم
أن سباخاً يخرج، أو تجرد نفس الفأس بصوت أنعم، فنعلم أن
ردماً نظيفاً يُفرش في الزريبة. ليلة طويلة، وناس يغطون في
النوم، وشتاء للبراسيم والأقماع، لا ري ولا حصاد.

ثمة أشياء غريبة تحدث هذه الليلة، وكلما سألتها تقول: "ادعى
لى". أقول لها: ماذا أقول في الدعاء. فتقول: "بس قول يا رب خد
بالك من أمي" وقول كمان: "يا رب النهار يطلع على خير" لكنني
قلت: "يا رب.. خللي إبراهيم عبد المطلب يدن بقى"، فأذن إبراهيم
عبد المطلب، وفُتحت دار الحبشي، وتنططت البهائم من انحباس
اللبن في الضروع، وحدثت جلبه في الخارج. فتحت بوابة الليل
الكبير مصاريعها فقالت: "دقيقة واحدة.. متخفش.. أوصل لحد
خالتك هانم" فقلت: لا. ألبستني الشبشب وأخذتني للخارج ولفتني
بالشال وأنا أرتعد. كانت تضع يدها في وسطها وتتألم وهي تمر
من شارع لآخر باتجاه هانم فودة وتقول كلما رأته أرتعد:

— مش كنت تقعد ع الفرن في الدفا أحسن؟

تقف فأقف. لا أدري سبباً للوقوف كأنها متعبة تستريح،
والمارة القليلون هياكل ملفوفة في خرق ثقيلة بلا ملامح. حين
مرقت من أمامنا بساقيها الطويلتين وجلبابها الأسمر بكرانيش
وتلفيعة الرجال حول رقبتها، كانت متعجلة، وبدا أنها لم تنتبه
لنداء أُمي الخافت:

— خالة هانم.. خالة ها..

— عايزة إيه يا بت؟

— كنت عايزاكى تشوفينى.

— الضهر وأنا راجعة.

— والنبي يامه هانم تشوفينى.. دانا هموت.

— فيكى وجع؟

— ما نمتش امبارح.

سبّت هانم فودة — ذات الوجه المستطيل — بصوتها الغليظ
الذين خلفوا أُمي وهى تدخن السيجارة بغضب، إذ تتشائم في
مشاوير الصباح من العودة أو مجرد النظر للخلف، وشدّت نفساً
وهي تفكر، فاشتعلت مقدمة السيجارة، فلعنت أم السجائر أيضاً،
وسارعت إلى إخمادها في الحائط وجذبت أُمي. لم أدر إن كنت
قد تركت يد أُمي لأن النهار قد شقشق بالفعل فانكشفت الشوارع و
الحيطان، أم لأن حديثاً ما كان يدور خافتاً بين هانم فودة وأُمي،

حتى أنهما جلستا في الشارع بجوار الحائط. استمر حديثهما الذي خفت كأنهما لا يريدان أن يسمعهما أحد، حتى أن أمي مالت بالفعل على صدر هانم فودة، وعلى أذنها بالتحديد، فيما ردتا الصباح على من مر عليهما، وأنا أتأمل اختفاء النجوم وبزوغ النهار، ملفوفاً بالشال حول رأسي ووجهي، لا تبين سوى عينايا. اصطبغت صدور السحب بالنور الأبيض والأحمر وبقيت مؤخراتها داكنة، ولمعت أسطح الدور والمقاعد وأبواب الشبائيك الشرقية ذات الحديد المبلل بالندى. تأوهت أمي فجأة "آه يا خاله هانم" فانتبهتُ. رأيتُ هانم فودة تتزع إصبعيها الطويلين — مخضبين بالدماء والمخاط — من تحت هدوم أمي الجالسة على قرافيصها، وتهب واقفة:

— قومي يا بنت الوسخة.. لسه بدري.. وجعك مسافر. مسحت إصبعيها في ثياب أمي وانطلقت إلى مشوارها، ولم أعرف لماذا شتمت هانم فودة أمي، ولم تقل أمي لماذا تبكى، غير أنني كنت أحس بالأشياء الغريبة — و النهار يطلع — تتلاشى، وإن ظلت مثل عود كبريت مشتعل بقايا سيجارة هانم فودة المرمية بجوار الجدار.

حلم قصير القامة

شيء ما، غير عجز التلاميذ عن الرد، دفعني لأن أرفع إصبعي في اللحظة الأخيرة متردداً، قبل أن يغادر المفتش الفصل. وشيء ما، غير نظرتة اليائسة — وهو يترك الفصل — جعلته يرى إصبعي ذلك المتردد، فيستدير:

— معقولة يا قصير انت تطلع بتفهم وسط ستين بغل؟!.. اطلع!
أوسع زميلي بالدكة الأخيرة، ومن طريقة ضيقة بين صفي دكك، طلعت إلي السبورة. تفحصني بقرف ولم تنزل أشيأؤه التي لمها تمهيداً للخروج تحت إبطه. أشار بكفه الفارغة:
— امسك الطباشيرة وارسم.. اكتب.. اعمل أي حاجة.

تلقفت الطباشيرة وأعطيت وجهي للسبورة. رسمت جذع شجرة كبيرة. كانت قامتي قصيرة وأنا أبدأ من أسفل سبورة سوداء كبيرة. رفعت لأول مرة من شهرين إصبعي، إذ لاح لي أن الجميع قد نسوا الأمر، وبدا أن ما كان يشغلني لم يعد له وجود

سوى في رأسي، وبدأت بعيدة جداً ومتناهية أصوات الناظر ومدرس الألعاب وهو يصرخ وسط الفناء أن الأمر جد لا هزل، وأن الدنيا تنورت ولسنا في كتاب الشيخ مرسى، ثم يخرجنا من الطابور، يفرزنا واحداً واحداً بعصاه الطويلة، ويلسع دون أن ينظر إلى وجوهنا. من تلسعه العصا فالأمر يعنيه ويخرج من الصف. يأمرنا فنعري أقدامنا، لنمر علي الطابور كله، وهو بعصاه من خلفنا يلسع، ويحذر بأن الغد له تعامل آخر.

كنت أقول لأبي، فيقول: "ربنا يفرجها.. واجيب لك اللي انت عايزه". ولأنها لم تكن تفرج غالباً، كانت أُمي تقول إنها ستذهب للناظر وتكلمه عن الظروف، لكنها لا تجيء، فيحدث في الفناء ما يحدث كل يوم من كشف عن السيقان والمرور أمام الصفوف محدقين في الأرض، ثم الوقوف في الخلف، فلا نرى بعد ذلك الفناء ولا الشجرة ولا النخلتين ولا نرد تحية العلم، حتى حدث ما غاب من أجله الأربعة الآخرون، ولم أعد أراهم بعد ذلك.

كانت السبورة ملساء ولامعة، وإصبع الطباشير طيِّعاً، وجذع الشجرة ضخماً ومجعداً، تتفرع منه تلك الفروع الضخمة وتتجه بميل لأعلي. كان الظل وارفاً ولم أدر من الذي كان يناولني أصابع الطباشير الملونة، ولا أصوات من — على وجه التحديد — تلك التي تشجعني، ولا من أي اتجاه كانت تأتي همهمات

الاستحسان، وبدا أن المفتش قد وضع دفاتره وعدل عن الخروج، حتى أنني شعرت بأن اليد التي تربت كتفي هي يده، وأن ساقَي اللتين كانتا تؤلمانني انفردتا قليلاً عند الركبة، واستطالت ذراعاي لتلون الفروع والأوراق، فتتدلى منها ثمار ناضجة، وهمهم المفتش: أين رأى هذه الشجرة.

إذ تطلب الأمر في البداية وقتاً طويلاً، منذ اهتديت وحدي إلي جلاباب فهمي المعلق علي الحائط، لأبدو عادياً، فلا يعوقني في السير، وأمر لأول مرة عبر البوابة الحديدية، وأقف في الطابور وأدخل الفصل دون أن يستوقفني أحد، بدا أن الجميع — الناظر والعيال وأستاذ الألعاب — على استعداد لنسيان الأمر تماماً، على أن أقف كل يوم في الصف الأخير للطابور، ثانياً ركبتني قليلاً، فلا أرى الفناء ولا الشجرة ولا العلم، وآخذاً — بشكل تلقائي — مكاناً ليس في المقدمة وليس في المؤخرة حين نستدير للفصول. كنت مرتاحاً أن تمر الأيام على هذا النحو دون أن يلحظ أحد شيئاً، وإن تطلب الأمر جهداً أكبر، حين لم تأت أُمي للناظر، ولم يفرجها ربنا ليأتي أبي بكل ما أطلب، حتى أنه بدا يتجنب مواجهتي بعينه، متسائلاً بينه وبين نفسه كلما عاد آخر النهار دون عمل، إن كان ما يطلبونه مهماً في التعليم لهذه الدرجة. ولكم بدوت طبيعياً كولد قصير القامة، متحملاً الألم عند الركبتين، حتى

أن مدرس الألعاب والناظر لم يلفت نظرهما الأمر وأنا أسير وأجري وألعب على هذا النحو، حتى حينما لم أكن ألتزم بشكل صارم بمكاني في آخر الطابور، أو أرد مختلساً تحية العلم، غير أن الجميع حرص منذ البداية على أن لا يتغير مكاني: منتصف الدكة الوسطى، في آخر صف.

كيف اتسعت السبورة لنختين بينهما علم كبير على صاري يقف على ربوة من أسمنت؟ قلت: هذه مدرستي، وكان الحبل النازل من العلم بين إصبعي. جذبته فارتفع العلم ثم رفرف وغطى نوفمبر ولم يبق من التاريخ سوى ١٩٧٠ وميم صغيرة. حيث كان العيال والطابور والفناء ممتداً، لم أرسم الناظر ولا مدرس الألعاب، ورسمت لجميع العيال أحذية جميلة وملونة، وكنت أمسك بالحبل ما أزال حين رفعت هامتي لأعلى وزعقت:

— تحيا الجمهورية العربية المتحدة.

ردّد الفصل جميعاً من خلفي، ووقفوا وعظّموا بأيديهم، وكنت أستطيل وأقبض بكلتا يديّ علي حبل العلم:

— عاش الزعيم جمال عبد الناصر.

كيف سكت التلاميذ فجأة وسددوا أعينهم إلي أسفل، حيث قدمائي الحافيتان تلتصقان بالبلاط، والجلباب ينحسر عن السمانة، حتى أن المفتش دفن وجهه بين كفيه، وعيون العيال التي تدمع لم

تعد حادة. بدوت خجولا، وعادت ركبتي إلى الانتشاء مرة أخرى،
وعاد جلاب فهمي – الله يرحمه – ليجر جر على الأرض، وأنا
أنكفئ وأحاول النهوض فلا أستطيع، بينما الولدان في الدكة
الأخيرة يوسعان لي وآثار الطباشير في أصابعي.

الركض في مساحة خضراء

أطفأوا النور — كما طلبت — وخرجوا، فبدا وجهها العجوز
في ضوء الموقد مريحاً. تسربت رائحة البخور المحترق
وانتفضت الشبّة. اقتربت منى وأصرت أن أبوح. كشفت لها
ظهري وقلت:

— يزعجني نباهم المتصل هكذا وانتشارهم المريب في كل
مكان.

ثقت ورقة بيضاء على شكل عروسة وتمتعت:

— هذه العيون تشك وتقلع.

حين ركضت خلفها في القمح المسور بالنخيل، كانت تضحك
وتزيح شعرها المبلول للخلف وتراوغ. قلت: كفى. ففركت
السنابل على كفها وحط الحمام من النخيل الجانبي. قلت: كفى.
فركضت منتشية ومالت برأسها الصغير للخلف وغنت:
— يا مطرة.. رخي.. رخي.

في اللحظة التي أوشكت أن أمسك ذيل فستانها، بين العشب
المبلول والقمح، نشعت منه بقعة حمراء، فكفت عن الركض
وضحكت. أمسكت ذيل فستانها المخضب وقلت: كفى. فأومأت
برأسها ثم جلست، وكان الحمام الذي شبع يأخذ أماكنه على
النخيل الجانبي، يدس رأسه تحت جناحيه ويغمغم، والناس خلف
زجاج القطار الأبيض — الذي مر سريعاً ومغسولاً — يبتسمون
ويلوحون. بينما هي متكئة على العشب تغنى، كان فستانها
الأبيض المبلول لصق نهديها الصغيرين، والمساحة الخضراء
ممتدة.

— هذه العيون تشك وتُقَلَع.

مزقوا كل أوراقى الخاصة، ودفعوني نحو الحائط. قلت مُصراً
إنني رأيتها بعينيّ هاتين وكان القطار أبيض ومغسولاً. لم يصدقوا
فأقسمت — وكنت أبكى — أنهم بالفعل ابتسموا ولوّحوا من خلف
الزجاج، لكنهم مزقوا كل شئ. رسمتها على جدار غرفتي
وجريت إلى أمي أهزها متوسلاً:

— هكذا رأيتها.. هل تصدقيني؟

ثم هزرتها مرة أخرى، فأمسكت ذراعيّ وقالت:

— أصدقك.. نعم أصدقك.

ثم بكت.

— هذه العيون تشك وتقلع.

على مثلث النجيل المترب جففت عرقي. أفهموني بكل السبل
أن ما قلته مستحيل. قلت: إنني لم أعد أفكر في ذلك وربما نسيت
كل شيء، وسألتهم إن كان باستطاعتي أن أتمشى قليلاً، فلم
يمانعوا. راودتني رغبة في الركض، غير أن مثلث النجيل كان
ضيقاً ومحاصراً بزحام الميدان. حين بدا الميدان خالياً منهم،
ركضتُ. رأيتهم يبرزون من حوائط الميدان، وقالت امرأة جالسة
على مقعد رخامي: كفى. ركضتُ. نشبوا أنيابهم في ظهري،
فقامت مذعورة على ذيل جلبابها الأسود بقعة داكنة. صرخت
بأعلى صوتي. ضمتني وقالت:

— مالك؟

لم أرد. كان النباح يخفت، والعروسة تشتعل في الموقد،
وكانت تتمتم:

— هذه العيون تشك وتقلع.

برماد العروسة المحترق، رسمت على جبیني عروسة، ومرت
بكفها على رأسي وظهري، فتتأببت. تتأببت هي الأخرى وشهقت
ثم تفت في النار. كانت الشبة السوداء تأخذ شكل الكلاب
المتحفزة.

— عيون الكلاب تشك و تقلع.

زَعَقَتْ:

— ادهس.

دهست الشبة بكعبي الشمال، فارتفع النباح المختلط بالعويل ثم انقطع. قالت: كفى. فرفعتُ كعبي، ولمت المسحوق في صرة ورمتها في مفترق شارعين ولم تبسمل. خلف البخور المطلق، كان القطار جامحاً ومساحات القمح ممتدة وهي تحت المطر تركض، وسط الحمام المرفرف، على ذيل فستانها الأبيض المبلول بقعة حمراء مفروشة.

طائر خفيف

.. وكنا مجتمعين أمام دكانه المغلق، نتوقع مجيئه من أي اتجاه، مستبشرين أن يكون لما حدث بالأمس علاقة بذلك، حين كان يجلس كعادته، على نفس الدكة، ليفصل في مشكلة لم تكن عويصة، لكنه على غير العادة استأذن بشكل مفاجئ، مؤجلاً حل المشكلة لموعد آخر، ثم نفض الباطو وأغلق دكانه ولم يعد. طال انتظارنا فجربنا أن نشتبك، إذ عودنا أن يبرز — لا ندري من أين — في نفس لحظة خروجنا بالفئوس والسكاكين والشوم، يندس بجسمه النحيف وسط المعركة: "أظن يا زفت هتنبسط لما تدخل السجن وللا عيالك يتيتموا؟" وينزل كفه على صدغ أحدنا — الأقرب غالباً — بعشم، فيستسلم الزفت الذي كان هائجاً ويسلم السكين، ويقف الآخر كأن ماءً بارداً دُلِق عليه، فيرمي شومته جانباً، وتراجع تباعاً إلى حيث أتت أفواج المتطوعين والمجاملين من الجانبين.

تجاوز اشتباكنا مرحلة الهزل، وبدا من الصعب التوقف حين صارت كفوفنا مؤلمة والضرب حقيقياً، لكنه لم يجئ. وكانت معاركنا من هذا الشكل تجهض وهي بعد في طور الزعيق والشتائم فجأة، عندما يتذكر المتعاركون وحدهم أن مآلهم إلى دكته، حيث تنبعث رائحة العطور من دكانه، فينصحنا بالرفق بالحمير في مسرى والعيال في بؤونه، ويوصينا بالحریم في المواسم، والموتى في الأخمسة، واليتامى في الأعياد، ويطمئننا من الكلاب في الربيع، واللصوص في الصيف، والشياطين في رمضان، ويدهشنا بأسلوبه حين يكتب العقود، ويفرق الحدود، وقيس المساحات، وسرعه في تحويل القرارات إلى أمتار والأمتار إلى أذرع وأقدام، ودقته في تقدير زكاة الأرض والزرع والبهائم، وينبئنا بمواقيت جنون النساء وخف الزرع وجني المحاصيل، محتفظاً في جيب البالطو بقلم كوبيا ونوتة صغيرة.

وكان قد امتنع تقريباً — منذ ماتت الحاجة — عن الأكل، وطال شروده على دكته، لا ينغلق دكانه غير ساعة واحدة، يقوم بعدها مفزوعاً لصلاة الفجر، فنحف جسمه، وكنا نحذره فيراوغ: "حلو كده عشان جمعه ميتعبش". وحين قال له جرجس الأجزجي: "واحد وخمسين رطل"، استغرب ثم تذكر أنه وزن نفسه بالعصا، فدخل عند دسوقي البقال ووزنها، وضحك لأن العصا كانت ستة

أرطال، فخلع الباطو ولم يزل على استغرابه، ووضع على الكفة، وضحك دسوقي قبل أن يقول: "حداشر رطل"، فتنهد بارتياح متحاشياً نظراتنا المتعجبة: "عال كده.. عايزين إيه تاني؟ أربعة وتلاتين رطل.. إيه؟ هننهب؟" وجلس على دكته ليفصل في مشكلة لم تكن عويصة، وضحك كما لم يضحك منذ موته الأولى، حين بقي في مشرحة المستشفى الأميري ساعتين، حتى نستخرج شهادة الوفاة المعلقة في الدكان حتى الآن، وتحضره سيارة الإسعاف جاهزاً، لولا أن جمعة أبو الجود الذي لا يثق في غسل المشرحة قرر إعادة الغسل، حالما توضع له التربة ويكتب عبد الوهاب مرعي الخطاط على شاهدها اسمه وتاريخ انتقاله، ولولا بكاء الحاجة المتهدج، الذي رقق — على غير العادة — قلب جمعه، فسمح — مقابل أن تكف عن البكاء — بأن تلقي عليه نظرة أخيرة، لأن البكاء لا يعيد موتى، فترتمي عليه وهي تقول: "طيب يا جمعه" وتهز ذراعيه المعقودتين أمام صدره: "ده اللي اتفقنا عليه.. كده أهون عليك يا حاج". كانت تهزه وجمعه يجذبها، حتى انتبه كمن يستيقظ، وتلفت حوله كمن يفيق من حلم، لتلمع من لحظتها عيناه كلما حلفه أحد بالموتة الأولى، ويهز رأسه ويتهدج صوته، وفي علي أي نحو بما طلب منه، بيد أنه لم ينزلق مرة ليحكي لمخلوق — حتى الحاجة — عن تفاصيل هذه

الموتة، وإن ضغط عليه أحد في غمرة ضحكه واسترساله، يذهب الضحك، ويتوقف الكلام وحده، وتلمع عيناه بدموعه التي صارت أكثر قرباً منذ موت الحاجة، وتنزل وحدها كلما تذكر أن "زاد المال" منعتة من رؤية الحاجة ويتمتم: "كان فيها إيه لو بصيت؟"، وتهمر كلما رفض جمعة أمنيته القديمة، فيتوسل إليه ويجذبه من هدومه كلما قام: "يا جمعة خلّيك حنين.. أنا اللي طالب.. وهوصي بكده"، فيخلص جمعة جلبابه من يده: "ولو.. مينفعش.. أقول لربنا إيه؟".

بدا أن الاشتباك قد اتسع حتى انتاب بعضنا الشك فيما لو خرج، فإنه سيصير من الصعب عليه أن يفعل ككل مرة ويخرج محفظته، قائلاً إنه من جنيته لألف مع هذا الولد الغلبان، فتسقط — كما حدث بالأمس — المحفظة المنتفخة من تلقاء نفسها، أو ربما بفعل الرعشة التي بدأنا نلاحظها أخيراً في يديه، وتمتد أيدينا، فتلم ما خرج من أحشائها في دهشة: جريدة قديمة مطوية وورقة فئة ربع جنيته، فنضحك فيستأذن بشكل مفاجئ موجلاً حل المشكلة لوقت آخر. لكننا كنا نطرق بابه بلهفة ونتلفت قبل أن يسقط من الكتلة المتعاركة أحد، حتى ارتطمت الكتلة المشتبكة ببابه في الثامنة والنصف، لنجد الراديو مفتوحاً. تخطينا أجولة البخور والنعناع والزعر والزنجيل والشاي الأخضر، فوجدنا مكانه

شاغراً، وتسمرت أجسادنا لحظة حين وجدنا الحاجة كأنها نائمة
في مكانها، دمية بنفس الحجم، بجلابها زهر الكتان، وطرحتها
الحريز، مغطاة بحرام صوفي، ينتثي ذراعها على وجهها كأنها
تخبئ دموعها المعتادة عندما تسمع "همسة عتاب". ضرب جمعه
أبو الجود جبهته كمن يتذكر، وجرى ونحن خلفه نحو المقابر،
بنفس الكتلة المتعاركة التي لم يعرف أحد منا كيف انفكت بهذه
السرعة وهذا النحو لنرى بأعيننا الباطو والعصا وفردتي الحذاء
أمام القبر، وحافة الباب مرفوعة قليلاً بما يسمح لطائر خفيف أن
يدخل.

المنشغلون

منك لله يا برهومة! كيف انسابت عبر حوائط المسجد أصداء
نفيرك القديم، فتدب فينا الدهشة وهذا الصحو الغريب ونحن نوّدي
بكسل ركعة الوتر ونتئأب، وتقودنا أصدأؤه المتعالية كأئين ناي
كبير إلی ذات المكان الذي لم نتصور أن يضمنا بعد ثلاثين عاماً
— من مات منا ومن عاش — لئائف حول تعريشتك القديمة،
وسط حقل من العصافير الملونة كان قمحاً منذ قليل، أخضر
بسنابل مشرعة؟. منك لله يا برهومة! وكيف أطفأت الكون كله
لتضيء قطوف العنب المدلاة من تعريشتك، فنرى أنفسنا بذلك
الوضوح — كأئنا عدنا صغاراً — نتزاحم حول نفيرك المنتصب
أسفل التعريشة، فإذا بك تفعلها وتسحبنا بنفیرك حتى هنا، لتوقعنا
في حرج مع جمعة أبو الجود بنظراته القاسية التي تتساءل لماذا
جنأنا، وهو يقلبك في رقءتك هكذا وحيداً، طالباً الكفن بصوته
الفضيع، ونصبح كمن وقع في مصيدة، فلا ينفع التسحب للخلف

وأصابعه الممدودة تتلعب متسائلة:

— فين الكفن؟

ذيل الكلب لن ينعدل يا برهومة! نتحاشى مواجهة جمعة فتواجهنا به، وتعلم أنه من آخر المستحيلات أن يتبرع أحدنا بخيط في كفن لك، وتضعنا في هذا الموقف المخرج، فهل أنت سعيد الآن وأنت بين يديه بينما تفكيرنا منحصر في البحث عن علة للخروج، أم تتشفى وهو يوقفنا بذراعيه الطويلتين مستهزئاً:

— الكفن يا بني آدمين؟.. حد يجيب الكفن من النفير.

هأنت تموت ولا تموت أَلغازك، فلم تقل لنا إنك اتفقت أثناء حياتك مع جمعة أبو الجود وخبأت كفنك داخل البوق وبداخله أجر جمعة، بذات الغموض الذي لم نصل معه إلى جواب حقيقي عما كنت تجنيه مقابل سرقاتك الصغيرة، تلك التي تتعرض بسببها لضرب يقربك من الموت، حين تفاجأ بنا نبرز لك من كل اتجاه، فتنكمش، وتتقي بذراعيك لكلماتنا، ثم تسقط، فتسقط وحدها الأشياء التي تكون صغيرة في الغالب ورخيصة من بين طيات ملابسك: كتكوت صغير أو باكوشاي أو عملة فضية.

واستطعت بخبثك وصمتك أن تغذي الخلاف بيننا إلى درجة أن يرى عقل قرارنا بمنعك من دخول المسجد — قبل أن يصير فيما بعد صديقك — اجتهداً خاطئاً، فلا أحد يعلم من الذي يتقبل

الله منه، ويدعو إلى الحكمة في علاج هذه الأمور. كدنا نقتنع لولا أن بادر عبد الرحمن الظني بغيرته وحسم الأمر لما رآك تتسحب من باب المسجد فطردك، غير أنك استطعت بغموضك أن تعمق الخلاف حين رآك بعضنا تؤدي الصلاة وحدك على عجل في دارك قبل أن تغادرها، أو في خوف على رأس غيظك، بعيداً عن الأعين كأن أحداً سيخرجك منها عنوة، ليتعمق وحده الخلاف بعد ذلك أكثر حين يروى المعداوى أنه رآك تصلي العصر على شاطئ النهر مخطئاً في التلاوة وفي غير اتجاه القبلة، فأشار لك بالاتجاه الصحيح ثم عبر بالمعدية، فإذا بك تنادي وقد فرشت منديلك على الماء وركبته حتى منتصف النهر ومسكت حافة المعدية لتسأله في أي اتجاه أمرك أن تصلي. يصرخ الظني فينا: "ما اتخذ الله من ولي جاهل" لتتعدل الكفة مرة أخرى، الظني الذي جعلته يعيد الجمعة ظهراً، وفي كل مرة، نسأله يتف على شماله في حيرة:

— مش عارف.. اتھياً لي إن الواد ابن الكلب النجس ده كان بيصلي جنبى!

فهئئت لنا كل جمعة، تصلي متوجساً في الصف الأخير قرب الباب، أو في الشارع متخذاً آخر صفوف المتأخرين، محافظاً — كي لا تلفت الانتباه — على عدم التصاق المناكب أو الأقدام،

حريصا على ألا يستقيم الصف من عندك، بالرجوع قليلاً للخلف فلا يتعرف عليك جارك، لتكون حين يسلم الإمام أول من ينطلق للشارع، دون أن يدركك أحد، فأضفنا الطوب والحجارة إلى شتائنا واسمك الجديد، وظللنا نضوب نحوك بقسوة وإحكام حتى قفزت بكرباجك فجأة بيننا فأصابنا الذعر، وتفرقنا كل في اتجاه وأنت تطوح الكرباج في الهواء قدر ما تطول يدك، وتلف جسمك متعمداً أن يطالنا دون أن تقصد أحداً بعينه. ظللنا نجري ونحن ننظر نحوك بفزع ورهبة دون أن نصدق أن يكون دماً كل هذا المتساقط من أنحاء جسمك، حتى أصابنا التعب فارتمينا على الأرض، والتفت عيوننا جميعاً بعينيك، وأنت تقترب منا وتبكي، لكنك وعلى غير ما نتوقع، لحقت بنا ثم تخطيتنا — كأنك لم ترنا — ولم يكن بيدك كرباج، متجهاً نحو الخلاء، لتقيم في نفس الليلة تعريشتك هذه.

مرات قليلة تلك التي كنا نشاهدك تضحك ملء صدرك حين تكون مع عقل، تضحكان بقلبيكما لا يوقفكما عن الضحك إلا ظهور أحدهما. يتوقف الضحك كغصة في الحلق، تعتدلان في جلستكما، يدور الحديث مصطنعاً وعادياً وبارداً وخالياً من الروح. رغم أننا لم نعد منذ فترة طويلة نرى منك ما يستوجب الضرب، إلا أننا استبعدنا أن تكف يدك — التي تأكلك دائماً —

عن السرقة، واعتبرنا أن جسدك الذي اعتاد الضرب طيلة السنوات السابقة قد استساغه وجبة يأخذها كل يوم، وإن بالغ بعضنا في تفسير جلوسكما عند النفير بأن أحكما يكيل للآخر كل يوم معلوماً من الضرب المبرح، مقابل أن يؤدي له الآخر — نستغفر الله — فعلاً تهتز له سبع سموات.

أنت المتسبب — وليس وخم الربيع الممتزج بصيف — في الرخاوة والتقل التي جثمت على أرواحنا طوال اليوم ونحن نتطارح تحت أشجار التوت كمن أكل داتورة ونتساءل كلما نادى الظني عقب كل أذان عمن يكون إبراهيم محمد سليمان، ويفرد في كسل كل منا قميصه في اتجاه ظنه القبلة، لنصلي الظهر قعوداً وعلى جنوبنا، ويخلو المسجد لأول مرة في ثلاثة أوقات إلا من الظني المنطرح هو الآخر تحت مروحة السقف منتظراً رد برنامج بريد الإسلام على سؤاله العاجل عن حكم صلاة الجنازة على اللوطي أو النوري. ولأن ما يؤذي الحي يؤذي الميت فقد رفض الظني النداء عليك باسم الشهرة، والظني الحريص ألا يخطئ أمهلك ثلاثة أوقات، بعدها أذن للعشاء وأقام الصلاة. وإذا كنا بالكاد نتذكر أننا صلينا الظهر بالحقول، ولا نعرف أين صلينا العصر والمغرب، فهل كان لنا أن نذكر بعد ثلاثين عاماً أنك إبراهيم محمد سليمان، دون أن ينبعث صوت نفيرك القديم مخترقاً

الليلة نوافذ المسجد وحوائطه في ركعة الوتر؟

تعالى الهمس فلم نستطع ونحن خلف عقل للصلاة أو أمامه في درس المغرب، أن نمنع عيوننا أن تفحصه، تعاين ملامحه التي اقتربت من النساء. بينما نستغفر الله من وسوسة الشيطان تأكد لبعضنا بروز ردفه، وللآخرين نعومة صوته في التلاوة. ولاح لنا في مشيته المتمهلة عقب الصلاة ثابت الرأس كفتاة تتأود تفاصيل جسدها تحت بلاص ممتلئ، وكان في قعدته — حتى في الدرس — أقرب لامرأة أمام الفرن. كنا نناقش ما توصلنا إليه ونستبعد ما نراه مبالغة. استغرب عقل من سرحاننا وقلة تركيزنا، فاختصر دروس المغرب، ثم امتنع نهائياً بعد أن وقف الظني الذي تعمد ألا يصلي خلفه منادياً بغضب بينما ينشف الضوء عن ساعديه وهو يقيم الصلاة على من فاته المغرب أو من ظن أن صلاته باطلة. وجه كلامه نحونا في حلقة الدرس ونوى متوتراً، يطغى الغضب في ملامحه على سكينة الصلاة. طغت نبرات تلاوته العالية على الدرس، فخفض عقل صوته أولاً ثم أغلق كتبه حتى ينتهي من ركعتي الجهر، إلا أن الظني الذي انتهى من الصلاة لم يسترح حتى أبرأ ذمته موجه إصبعيه نحو السقف وكلامه نحو الدرس:

— اللهم هل بلغت.. ما ييقاش الواحد متاتل ذنوب وييجي

يزودها ويفتي.. كده حرام.. آه.. اللهم فاشهد.

سمعنا ولم نر، ولم يكن لدينا استعداد أن نقبل غير ما تصورناه: تأكلك يدك يا برهومة فلا تهدأ حتى تلهف شيئاً، أي شيء فيضربك أحد كي تهدأ يدك، وعقل تتلوى بداخله دودة طويلة، فيتلوى كامرأة. كيف اكتملت في رعوسنا الصورة: ضرب وتأوه ثم وطء وصراخ، حتى تهدأ اليد التي تصرخ والدودة التي تتلوى تستكين؟ لا تسألنا، فالمتربصون منا والذين في قلوبهم شك لم يظفروا حين اقتفوا أثركما في الحقول وعلى شواطئ الترع وبين عيدان القمح، سوى برؤيتكما معاً عند النفير تضحكان، أو عودته بكتبه تحت إبطه في أوقات متأخرة من الحقول.

حتى النفير الذي نصبه محمد أفندي علوان زمناً ليبعد العصافير عن القمح، كان شاهداً على نحسك، منذ استأجرك لنفخه، أنت الذي لم تفلح في عمل أسند إليك، وسوف لا ننسى ما فعله بك حسن قصاص الحمير أو الشافعي شامة الذي يدهك الدور أو الغريب مبيض النحاس أو سروحك فيما بعد بعربة الجاز ثم نازحاً للكبنيات بجرديك المعلقين بعصا على كتفك الأيمن، ثم بائعاً للبطاطا المشوية، والجميز، وكيف يسوقك نحسك — كلما ضاقت بك السبل — إلي طريقنا فننتبعك ونفضحك

ونضربك. هل عرفت لماذا أسميناك برهومة؟ نفخته فاجتمعت
العصافير الملونة من كل صوب ووقفت على عيدان القمح،
أصاب الحسرة محمد أفندي علوان في بطنه فأخذ يضربك
بجنون دون أن يعطيك أجرك المتفق عليه: رغيفان وقطعة جبن.
وسكت إلى الأبد نفيده الذي سينسب فيما بعد هكذا ببساطة إليك،
ولن يذكر سوى القليلون منا أنه نفيده القاطرة ستيفنسون التي
خرجت عن قضبانها لتغرق في الرياح التوفيقية بينها في
مطلع ١٩٠٠، وأن محمد أفندي علوان قد جلبه وأضاف له البوق
الكبير ليضخم الصوت.

لن تجوز عليك الآن سوى الرحمة، وأنت متمدد في ضعف
بين يدي جمعة، وقد مرت ثلاثون عاماً على علقك الأخيرة،
ونحن نطارذك وأنت تقوم وتسقط، مستسيخين اسمك الجديد في
الشتائم، فترتبك وتسقط، ليخرج كتكوت يصوصو من جيبك، ومن
جيبك الآخر باكو شاي سيلاني، دون أن تستحوذ سرقات أخرى
كبيرة للصوص آخرين محترفين على رءوسنا مثلما التصقت
بأذهاننا سرقاتك أنت الذي ترقد الآن بين يدي ربك إن شاء عذبك
وإن شاء عفا عنك، وسوف نتداول فيما بيننا لثلاثين سنة أخرى،
دون أن نخبو، رواية الظني في درس المغرب الذي رآك بعينه
اللتين سيأكلهما الدود نائماً على كوم الردم، أمام غيط جارك

متظاهراً بالنوم في ظل الزنزلخت، بينما تعبى في حقيقة الأمر
بيدك — التي تأكلك — التراب في سيالة جلبابك، حتى إذا امتلأت
السيالة تظاهرت بالانتقال إلي كوم الردم على رأس غيطك،
ورقدت على جنبك ثم أفرغتها.

غرّت من وجوهنا كما تغور المياه في الآبار، لتسكن كالجان
الخلاء والمزارع، واعتزلتنا ليس مهماً برغبة من فينا، فلماذا
تسري في أحاديثنا وتتمدد في جلساتنا كأنما لا شاغل لنا سواك؟
إذ كانت مشكلتك دائماً معنا هي الوضوح الذي ننشده بينما أنت
تصر على الغموض. لو كنت تتكلم، أو تدافع لهان الأمر، لكنك
تصمت، ويا ليتك تصمت والسلام، لكنك تثير فزعنا حين تتبى
بصمتك عما نفعله في بيوتنا، بينما تدّعي العبط والمسكنة وأحياناً
الحكمة. لماذا لا تستقر على صورة واحدة؟ هل تستعين بأعوان
من الجن أو خدام من الملائكة؟ وفيما لا نستطيع أن نصدقك، لا
نستطيع أيضاً أن نكذب أعيننا التي رأتك وأنت بين يدي محمد
أفندي علوان، يضربك ضرباً مبرحاً وأنت صامت تبكي، حتى إذا
بعُدَ عنك بمسافة قمت غاضباً، ولأول مرة نراك غاضباً يا
برهومة وأنت تبحث في الأرض عن شيء تضربه به، حتى
وجدت خشبة، نعم خشبة يا برهومة، مسكتها بيدك وأنت تبكي
وتوجهها نحوه وتقول: "والله لا يضربك بالنار". وضحكنا يا

برهومة، ضحكنا حتى سقطنا على أفقيتنا، إلى أن أفقنا على صوت النار يخرج من الخشبة إلى قلب محمد أفندي علوان، وظللت ممسكاً بالخشبة، ذات الخشبة التي أنقذتك — مع شهود العيان — من الموت على يد الغفر ومخبري المركز.

صرخ الظني: "ما اتخذ الله من وليّ جاهل" فقال عقل معانداً: "وإن اتخذته علّمه". ولأن العند يورث الكفر فقد لجأ إليك ليتعلم منك! وصرتما صديقين، أنت بثيابك المهلهلة وهو بعلمه وكتبه وهندامه، ولم تأبها بكلام الظني، ليروي المداوي فيما بعد أن عقل الذي انتصر في البر الآخر في ثلاث وثلاثين مناظرة على علماء من مختلف الملل، وقف صامتاً في المناظرة الأخيرة أمام طلبهم الغريب والمفاجئ، طالباً المزيد من الوقت. ثم عرض الأمر مهموماً عليك يا برهومة، لتشير عليه أن يقبل، وتأمّره أن يلبس أغلى ما عنده ويركب دابته النظيفة لتسحبها له بثيابك المهلهلة، حتى إذا جاء الموعد وطلبوا منه أن يوقظ ميّتهم، أوعزت إليه أن يقول بثقة:

— لن أنزل لأوقظ ميتاً واحداً، اطلبوا من خادمي هذا أن يوقظه.

وأيقظته يا برهومة كما توقظ النائم، ليدخلوا في دين الله أفواجاً.

كان من الضروري إذن — حتى وأنت تشغلنا في ضوء
قطوف العنب المدلاة ككهрман وجمعة أبو الجود يفحص الكفن —
أن نفتش بدأب في كوخك الصغير عن شيء يؤكد ما ذهبنا إليه
طوال هذا التاريخ، حتى حدث ما لم نتوقعه، فصديقك القديم عقل،
وكما توقع عبد الرحمن، لم يحضر خوفاً من عيوننا المتربصة فلا
تتفصح مشاعره، وتأكد البناء الذي حرصنا ألا يتهاوى حين رأيناه
مضطجعاً في دهليز داره، حوله كتبه المفتوحة، كأنما موتك لا
يعنيه، حتى حين دققنا في عينيه الثابتتين والمتحجرتين غير
المهتمتين بوجودنا، وجدنا الدم يملؤهما وهما مفتوحتان ومحدقتان
للبعيد.

وكان من المنطقي وقد شغلتنا أن لا ننتبه لأسراب الحمام التي
كانت تطوف بيننا بأرجلها الصغيرة ولا الإوز العراقي برقابه
الطويلة، ولا لسرب الهداهد وأبي فصادة أعلى التعريشة، ولا
نرى الكلب والثلاثة أزواج من أبي الحصين، وإن انتبه الكثيرون
منا إلي حقل العصافير الملونة الذي كان قمحاً منذ قليل، يتماوج
بسنابله المشرعة، بينما تنأى إلى آذان الجميع — وبوضوح —
ذلك النغم المتهادي كنواح ناي كبير من نفيرك القديم، كلما سحب
جمعة أبو الجود قطعة من كفئك المكور في بوقه.

المصور يدخل الكادر

كانوا بنظراتهم الزائغة، كأنما يسIRON نحو المجهول. يتطلعون إلى الوراء كفئران تستشعر الخطر. يعتريهم الارتباك وهم يحملون صغارهم وأغراضهم كلما قابلتهم الأرتال مرتدة ومنهكة، فيبقون على مبعدة من الحدود مكديسين. لا تقدم ولا رجوع.

كنت معنياً — من موقعي المرتفع — بالنقاط صورة كلية لحشودهم التي بدت من ارتباكها وتكدسها بطول الصحراء كمسيرة ضخمة لا تتحرك، وما إن تبينت من موقعي أن الحدود قد أغلقت في وجوههم، حتى قربت الكاميرا برشاقة في لقطات متفرقة وسريعة، لكسر سكون المشهد الكلي. استنتجت من ملامحهم المتألّمة والمجهدّة، أن الذين يئنون تحت صفائح المياه والجراكن، هم الشيوخ، بينما النساء يحملن الصرر ويسحبن أطفالاً بدواً كأنهم يصرخون وهم يرفعون أرجلهم الحافية عن

رمال ملتهبة، دون أن يكون بإمكانهم التوقف، كبعض المستسلمين
في المؤخرة — رغم الهجير — لالتقاط الأنفاس.

صار بوسعي التقاط المشاعر من تعبيرات الوجوه لحظة
معرفتهم بإغلاق الحدود، ولحظة سماعهم للقصف القريب، فبدأ
المعمر وهو يتلمس بذراعه المفرودة كتف مرافقه الصبي وييده
الثانية العكاز وساقه الممتدة للأمام بمساحة الكادر، كأنه يتحسس
— حذراً — طريقاً غير معلوم، ويتلفت للخلف مرهفاً آذانه.

صحراء ممتدة. لا أول لها ولا آخر. شمس حادة ورمال
ساخنة. جموع من البشر في وقفة منتظرة ومرتبكة. كأنما سيرك
كبير قد نُصب. من خبرتي السابقة كمصور لعالم الحيوان
والكائنات الدقيقة، قطّعت اللقطة الكلية بلقطات زووم متفرقة،
لأتمكن من التقاط العلاقات الصغيرة بين هذه الجموع، فتقاطع
المتكالبون على الماء مع الفضاء الفسيح، والمتخلفون في المؤخرة
مع الساعين في المقدمة، ومن سقطوا تحت الأقدام مع الرءوس
الكثيرة التي بدت كنقط سوداء. مزجت اللقطتين في لقطة واحدة:
أقدام حافية وقرص الشمس المتوهج، وعجوز يبلع ريقه بصعوبة
مع السراب في الخلفية، وحجران صغيران كأنهما طفلان مع
خلفية ملساء من رمل لم تطأه قدم.

كانت اللقطات لاهثة وسريعة وغير مترابطة لأول وهلة، إلا

أنهم بعد فترة بدواً من إشاراتهم وحركات الشفاه والأذرع الممدودة والكفوف المقتربة والمتباعدة كأنهم يعرفون بعضهم، ويتفاهمون في الغالب بلغة محلية واحدة، وانتظمت مجموعات منهم في صفوف طويلة خلف شخص، يقوم فيقومون، يجلس فيجلسون، ينحني فينحنون برءوسهم نحو الرمال. حتى الدواب النافقة والدراجات المرمية والعربات الخشبية والأواني الفارغة لم تهملها الكاميرا، وكما بدت مدهشة رقتهم وهم يضعون صغارهم تحت خيامهم ومظلاتهم المتفرقة، تجلّت قسوتهم وهم يحفرون في الأرض حفراً كبيرة، يلقون فيها بعضهم البعض ويهيلون الرمال، ثم يعودون فيتعانقون.

منذ متى وأنا مغرم بالتفاصيل الصغيرة؟ كنت أضع العيّنة علي الشريحة الزجاجية وأثبت العدسة، فلا أرفع عيني حتى أحدد العدد الإجمالي، وأرصد الحركة الأمامية فقط، وأحسب النسبة المئوية للمشوهين، وأحدد نوع التشوه إن كان قطعاً للرأس أو قطعاً للذيل، ومعدل الموت في الساعات الثلاث الأولى من أخذ العينة، لأنتهي بكتابة تقرير وافٍ بالعين المجردة ومن خلال التفاصيل الصغيرة لعدسات المجهر الضوئي الثلاث.

قبل أن يصير المشهد مألوفاً، وتعود الصورة إلى السكون، كنت أدور بالكاميرا ماسحاً الفضاء الشاسع والرمال الواسعة بحثاً

عن فريقتي الذي سيأتي عما قليل إلى هذا الموقع المرتفع ليزودني بكل ما أحتاجه بعد أن أوشكت أشيائي على النفاد. اصطدمت مرة أخرى بالولدين. كانا بالفعل كحجرين، يبعدان بمسافة طويلة عن الحشود، ولا يتجاوز أكبرهما السنوات الخمس. ملأت الكادر بوجه الصغير وهو يبكي ويتلفت. لم يكن حوله سوى رمل أملس، بينما ذراع الأكبر من خارج الكادر تحوط عنقه وتهدئه. لم يكف فربت اليد كتفه ودخلت إلى الكادر رأس الكبير تقبله. كأنهما أخوان. أطارد التفاصيل الصغيرة كما أطارد الفراشات ناسياً أن الماء والمعلبات والعصائر والسجائر وبطاريات الصوت والشرائط أوشكت على النفاد ولم يأت فريقتي بعد.

لم أعد أذكر كم من الزمن مرّ وأنا أنتظر الموت عطشاً، ولا متى نفدت البطاريات ولا شرائط التسجيل، ولا متى كفّ هاتفي عن الإرسال والاستقبال. شغلتنى التفاصيل فلم أنتبه إلى أن كل شيء ينفد من تحت يدي، وكان عليّ أن أحاول الاتصال مبكراً بزملائي في البعثة أو من بعثات أخرى، لكن ارتفاع الموقع الذي أشرف منه على المشهد كله، والمؤن التي كانت معي، وسحر المنظر العام هو ما خدعني.

كان عليّ أن أهبط عن صخرتي العالية وقد تصورت أن احتمالات الموت القادم لا محالة قد تكون أقل وسط بشر كهؤلاء

عنها فوق الصخرة. هبطت ففقدت الاتجاهات. تلاشت الحشود التي كانت قريبة بالمنظار، وبدأ الموقف — وأنا أغوص بالرمال — أشبه بمتاهة، وخيم شبح الموت أكثر من أي وقت مضى عندما رأيت صديقي الصغيرين كأنهما نائمان، يحيط أحدهما الآخر بذراعه، والنسور الهائلة تحوم حولهما، وقد جمدت ملامحهما تماماً، وذيلًا جلبابهما الأبيضان ينحسران عن ساقيهما.

كلما اقتربتُ من الماء بعدُ، وكنت ما أزال أعني أنني بسيري خلف الماء أبتعد عن الحشود، لكنه العطش. طالت المتاهة، وخُيِّل إليّ أنني عدت طالباً، وأنني أنهيت للتو دراسة الطب. هل أبحث عن ماء أم أبحث عن عمل؟ في معمل التحاليل الطبية، قال صاحبه: كم تريد؟ قلت: أشرب. فاستغنى عن خدماتي ثم أنزل زجاجة الماء المثلج عن فمي فارغة. دخلت المحطة كمصور متخصص في الطفيليات والكائنات الدقيقة، والتقيت بجليسة أطفال فتزوجتها، ولم تحمل فقلت لطبيبيها المعالج: أين الخطأ إذا كان كل شيء جيداً علي الشريحة الزجاجية؟ رفع عينه عن المجهر وقال: انظر.. الحركة الأمامية مرتبكة. فقلت: لا، هذا رد فعل طبيعي، فقد وضعت على حافة الشريحة حاجزاً دقيقاً، فاكتشفته الحيوانات المنوية فارتبكت حركتها تماماً. رد فعل طبيعي، وكان عليه مراعاة أن العينة على شريحة وليست في موضعها الطبيعي

المؤهل لاحتضان هذه الحيوانات وتوفير الغذاء لها، ذلك الموضع الذي يوفر لها حياة إضافية قد تمتد إلي أربع وعشرين ساعة، وبدلاً من أن يبحث عن إجابة لسؤالي المعلق، أوعز إلي صاحب المعمل بالاستغناء عن خدماتي. ظل طبيب زوجتي الممتعض دائماً من حُبِّي للتفاصيل، يؤكد أن امرأة بهذه الأنوثة، وهذا الانتظام في الدورة الذي تضبط عليه ساعتك، وتلك الأنابيب السالكة، لا يمكن أن يكون السبب منها، وأوصاني بعدم مغادرة البيت في اليوم الرابع عشر من بداية حيضها، لكنها بالرغم من ذلك لم تحمل. رافقت بعثات علمية وتليفزيونية في مناطق كثيرة، ولم يعد سوى التليفون الذي يربطني بجليسة الأطفال.

على أحجار كبيرة ملقاة وسط الرمال، كعلامات طريق متعرجة وأحياناً مستقيمة، كنت أتنقل من حجر إلي آخر. أتعب وأستريح وسط الهجير على أحد هذه الحجارة الصخرية، حتى فزعت حين دققت النظر فرأيتُ ذراعاً يأتي من تحت الأحجار. قمت فزعاً حتى أنني سمعتُ بأذني هذه تأوهات قادمة في نهاية الأحجار.

قبل أن أنتبه إلي حشدهم المنتصب، كانوا يصبون نقاط الماء بحذر في فمي كي لا أموت، بدا كأن ما رأيته — قبل هذه النقاط — كان حلماء، غير أنني وجدت نفسي على شفا حفرة خالية

وحجر، وهم يتفاوضون بشأني. وحين شعرت بلمس القطرات
لفمي، انتبهت ونظرت إليهم، ففرحوا جميعاً وأخذوني بعيداً عن
الحفرة، وكانوا يتهددون ويصرخون كأن معجزة حدثت.

فيما بدا أنني تماثلت للشفاء، كانوا يضعون بفمي بعض
الأعشاب الخضراء، وبعض حبيبات شعير، ويحتشدون حولي
باستغراب. لا يفزعني من بعيد سوى أصوات القصف التي لم
تعد تلفت حتى انتباه الأطفال ذوي الجلايبب القصيرة، أو تؤثر
على برامجهم اليومية وهم ينتظمون حول معلمهم المعمّر في
دائرة، يحفظهم بلغتهم المحلية نصوصاً دينية يرددونها خلفه.
بعدها ينطلقون في سباق من نقطة بعيدة حتى معلمهم، وذيول
جلايببهم البيضاء ترفرف أعلى سيقانهم الحافية على رمال
حامية. كنت بينهم أرتدي الجلابب الفضفاض. أعطي رأسي بهذا
الغطاء الأبيض، وأصفق بحماس وسط جموع الواقفين للمتسابقين
الفائزين. لا أنتفض رعباً إلا حين يأتي القصف، فيطمئنني المعلم
الذي بدا كشيخ قبيلة، ويسند ذراعه على كتفي ويده الأخرى
العصا. استمر السباق لفترة طويلة، حتى اكتشفت أنه يناولني
العصا، ويرفع يده عن كتفي في كل مرة ليصفق وينطق باسم
الفائز قبل أن ينتهي السباق. وحين اقتربت ببصري من ملامحه
مستغرباً من حدة بصره، فاجأتني عيناه المطفأتان.